

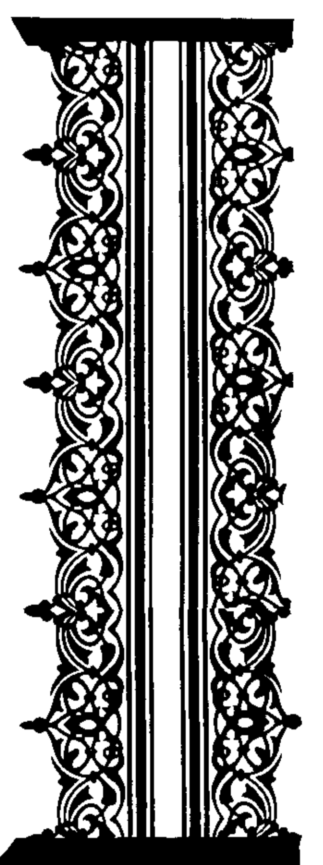
السنة الثانية ١٤٠٢هـ ربيع الآخر العدد (١٣)

دعوة الحق

سلسلة شهرية

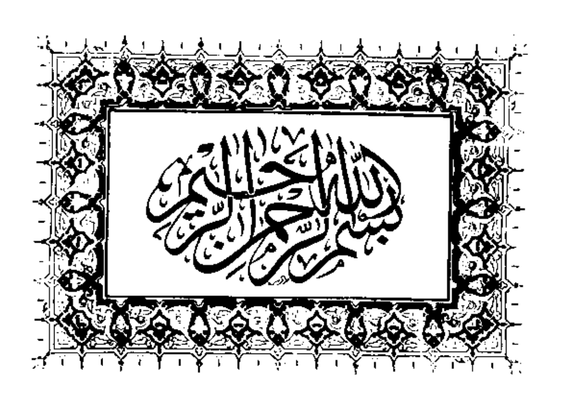
تصدر مع مطلع كل شهر عربي





تأليف

الأستاذ حسين أحمد حسّون


بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة المؤلـف

هذا الكتاب (مولود على الفطرة) هو واحد من ثلاثة كتب للشباب والناشئة ، وضعتها في ثلاثة من أركان الإسلام الخمسة، فكان هذا أولها وفيه أطوّف بفكر الناشئ أو الشاب — وبأسلوب قصصي ، تحرَّيتُ فيه أنه يناسبه ويروقه ويجذبه — وعبر قصة تبدو لفهمه « عادية » السرد والأسلوب ، تُبين له كيف يصل الإنسان البدائي التجربة ، الخالي الذهن من معرفة بالله ، العامر القلب — في ذات الوقت — بالإحساس بمدلولات وجوده تعالى ، في الآيات الكونية ، وفي نفسه ، وفي المخلوقات ، والموجودات من حوله ، كيف يصل للمعرفة بخالق الكون ومنشئه ، وكيف يمكن أن يصل — بعد ذلك — إلى أسمى درجات المعرفة وهي الإيمان بالله المنعم ، والنطق بالشهادة بأن لا إله إلا الله ، وإذ ما عرف هذا عرف ذاته ومكانته في هذا الكون ، ثم عرف قدر خالقه الباريء القادر المبدع ، القاهر فوق عباده ، القابض على النواصي وعرف فضله عليه ، وما كرمه وفضله به على سائر الخلق .

والقصة تبدأ كقصة عادية مما يقرأون ، حتى تجذب الناشئ لقراءتها ؛ « ضبع » ، و « طفل » ، و « غزال » ، و « جبال » ، حتى إذا ما شدته القصة وجذبته وملكت كل حسه وانتباهه وتوغل في فصولها ، وجد هناك الفكر الإسلامي الإيماني الذي هدفنا أن نغذي به عقله ، في صياغة تبدو وكأنها حوار بين رجل صالح ،

وشاب بدائي لم يُقدَّر له أن يتصل بأحد من بني جنسه من ولد آدم ، ولكن الهدف من الحوار - في حقيقة الأمر المقصود به - ابننا - الشاب أو الناشئ ، الذي أهملته أجهزة التثقيف ، والإعلام ، وتركته نهباً للمسلسلات والأساطير ، والقصص الفارغة المحتوى الخالية من المضمون ذي القيمة الدينية أو الخلقية ، علّنا بذلك نضعه في مواجهة الفكر السليم إذا كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قال صلى الله عليه وسلم : « لئن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » .

والله الموفق لما فيه الخير . .

المؤلف

مقـدور وعنـاية

وقف الضّبع الأرقط ، في وسط الوادي ، وأخذ يتلفت حوله ، ويركّز عينيه حيث يقع بصره ، كأنما يحاول أن يخترق بهما ذلك الظلام الدامس ، الذي كان يغطي الوادي جميعه في تلك الليلة الحالكة الظُّلمة .

كان الضبع جائعاً ، جوعاً زاد من توحُّشه وتلهُّفه للافتراس ، فكان يرفع أنفه بين اللحظة والأخرى ، يتشمم رائحة في الهواء ، كانت تثير شهيته ، وتكاد تفقده صوابه ، ، فالرِّيح التي كانت تأتي من الشمال كانت تحمل إليه رائحة الأغنام والإبل ، فتزيد من شرهه ، ومن جوعه ، وحاسة الشم لدى الضبع الأرقط لا تكذبه أبداً ، إنها فعلا رائحة أغنام وإبل تلك التي كانت تحملها إلى أنفه الريح ؛ فإن بعض البدو الرُّحل كانوا يسيرون مبتعدين مع أغنامهم في تلك اللحظة ، متجهين نحو الشمال ، بل إنهم لم يكونوا يبعدون عن المكان الذي يقف فيه الضبع الأرقط بأكثر من ربع الفرسخ تقريباً .

كان الرُّعاة من البدو الرُّحل يغُذُّون في السير إلى جهة الشمال ، حتّى يقطعوا مسافات طويلة ؛ مستغلين برودة الليل ، وهواءه النديّ .

ولنعد ثانية إلى الضبع الأرقط ، ترُى ما الذي جذبه إلى هذا المكان بالذات . . ؟ !

لقد جذبته الرائحة أيضاً ، فقد حملت له الريح من هذا المكان – وهو في أعالي الجبال – رائحة الأغنام والإبل .

وكما ذكرت ، فحاسة الشم عند هذا الضبع الأرقط لا تكذبه ، إذ أن هؤلاء البدو المتجهين جهة الشمال كانوا بالفعل يضربون خيامهم هنا في هذا المكان ، منذ الصباح ، حتى غروب الشمس ، وقد استسلموا جميعاً للراحة والرُّقاد استعداداً للرحيل في هدأة الليل ؛ وتلك هي عادة البدو الرُّحل ، يسْرون مرتحلين الليل كله بأغنامهم وإبلهم التي تركب على ظهورها النساء مع أطفالهن ، بينما يمشي الرجال أمامها ؛ وهكذا يمضون الليل كله سائرين وقد اكتسبت أجسامهم قوة وحيوية ونشاطاً ، يتبعون الدليل الحاديَ الذي يسير أمام القافلة وهو ينشد الأناشيد الجميلة التي تصل إلى الآذان مع هدأة الليل عذبةً صافيةً .

فإذا ما أشرقت الشمس ، وسلطت أشعتها المحرقة على الأرض توقفوا عن السير ، وأناخوا إبلهم عند موقع قريب من الماء ، يتوفر فيه المرعى لماشيتهم .

وما أن يحطوا رحالهم في المكان الذي يختارونه ، حتى يأخذ فريق من الرجال في ضرب الخيام ، في حين يقوم فريق آخر بجلب الماء ، وأداء بعض الأعمال الأخرى للمجموعة ، بينما يتولى الأولاد والبنات مراقبة الماعز والإبل وهي ترعى ، وتقوم النساء بتهيئة المكان وجلب حطب الوقود ثم يعملن في طهي الطعام ، حتى يتناول الجميع وجبة الصباح .

بعد أن يتناول الجميع وجبة الصباح ، يخلدون للراحة ، ما عدا القليل منهم الذين يتولون مراقبة الأغنام وحراستها .

إذنْ فالضبع الأرقط لم تخدعه حاسة الشمّ ، فقد كانت الماشية هنا قبل ساعات مع رُعاتها ، كانوا هنا قبل حلول الظلام ؛ فرائحة الماشية التي لا تخفى على الضّبع ، ولا يخطئها أنفه ، ما زالتْ تملأ المكان .

ورفع الضبع أنفه في الهواء مرة أخرى وأخذ يتشمم ؛ إن الرائحة ضعيفة ، إذن ... فالقطيع الشهيُّ قد ابتعد كثيراً ...

وأطلق الضبع عُواءً حزيناً يائساً ، بصوت حاد ، ردّدت صداه الجبال البعيدة . . وصمت الضبع فجأة ، فقد وصل إلى أذنه في تلك اللحظة صوت رقيق متصل ، كان ينبعث من مكان لا يبعد كثيراً عن الموضع الذي يقف عنده الضبع .

صمت الضبع وتوقف عن العواء ، ووصل إلى أُذنه ــ عندئذ ــ عُواء ضبع آخر من مكان قريب ، لعله هو الآخر جاء وقد جذبته تلك الرائحة .

أما ذلك الصوت الرقيق المتصل فكان ما يزال يصل إلى سمع الضّبع ، والضبع لا يدري عنه شيئا .

تقدم الضبع نحو مصدر الصوت ، وازداد لمعان عينيه ، وبريقهما وهما تخترقان الظلام ، كان يمشي في سرعة وحذر ، حتى اقترب من موضع الصوت ، وحينئذ رأى أمامه على البعد شيئاً يتحرك ، وأجفل الضبع في أول الأمر ولكن غريزته العدوانية والجوع الذي كان يسيطر عليه في تلك اللحظة جعلاه يندفع نحوه لا يلوى على شيء .

وتوقف الضبع قريباً من ذلك الشيء ، وأخذ ينظر إليه بشرهٍ ووحشيةٍ ، ولم يكن ذلك الشيء غير طفل يبلغ من العمر سنتينَ

تقريباً ، أو أقل قليلا ، كان يرقد على الأرض ويحرّك يديه ورجليه من غير انقطاع ، وهو يصرخ بدون توقف .. وكان الضبع ينظر إليه وقد أصابه بعض الخوف من ذلك الصوت الغريب الذي لم يكن قد سمع مثله من قبل .

وسكت الطفل فجأة حينما أحس بأن هناك من يقف قريباً منه ؛ ولعله اعتقد أن هذا المخلوق هو أُمّه أو مُرضعته ، اللتان كانتا في تلك اللحظة في مكان بعيد ، ضمن القافلة ، وكانت كل واحدة منهما تعتقد أن الطفل لدى الأخرى .

سكت الطفل فجأة ، فتشجع الضبع ، ووجّه أنيابه الحادة نحو أمعاء الطفل مباشرة ، وهجمَ ، فاصطدمت أنيابه بجلد متين ، كانت والدة الطفل قد لفّته به استعداداً للسفر والرحيل ، خوفاً عليه من برد الليل ، بعد أن اعتمدت على المرضعة في حمله معها .

اصطدمت أنياب الضبع بالجلد ، وانطلقت من الطفل في نفس الوقت صرخة حادة ، أخافت الضبع وجعلته يجفلُ ، ويتراجع عدة خطوات للوراء ، وحينئذ سمع صوتاً لوقع خطوات ضبع آخر يقترب من فريسته ، في الظلام ، فترك الطفل لفترة وكشّر عن أنيابه بشراسة ، وتحفّز لملاقاة الضبع الذي كان قد اقترب كثيراً من الطفل ، الملُقى على الأرض .

وقفز الضبع الأرقط مهاجماً الضبع المتطفّل الدخيل ، الذي كان أضخم منه حجماً ، وأشد قوة وبأساً .

ونشبت معركة مفاجئة بين الضبعين ، وعلا صُراخ الطفل ، وزاد فزعه وخوفه . . وحميَ القتال بين الوحشين ، وتقهقر

الضبع المهاجم ، وتعثّر في تقهقره ، وكاد يسقط على الأرض ، وانتهز الضبع الآخر الفرصة ، فحمل الطفل بين أنيابه ، وأخذ يعدو به متجهاً صوب الجبال ، بينما استعاد الضبع المُهاجِم ثباته ، وتمالك قوّته ، فأخذ يعدو في إثرهِ .

وسكت الطفل عن البكاء ، وقد تملكه – في أول الأمر – رعب قاتل ، وهو لا يعلم شيئاً مما يدور حوله . إذ أحسّ فجأة أنّه اختُطف بعنف من على الأرض ، وأنّه يتدلى من اللفافة الجلدية ، وقد أمسك بها الضبع بأنيابه القوية ، وأخذ يجرى به .

بلغ الضبع الأرقط سلسلة الجبال التي كانت تحيط بالوادي ، وعندها توقف قليلا حتى يستجمع أنفاسه ، وحتى يراقب مطارِده الضبع الآخر ، ثم أخذ يعدو صاعداً الجبل ، وقد أحسَ أن مطارِده يقترب منه .

أما الطفل المسكين ، فقد أُغمى عليه من فعل الهزة العنيفة ، واصطدامه أحياناً بساقي الضبع الأماميتين وصدره القوي .

ومضى الضبع صاعداً الجبل وهو يحمل الطفل بين فكيْه ، وكان كلما فكّر في التوقف عن الجري لالتقاط أنفاسه ، أحسّ بقرب مُطارده منه ، وسمع صوت عُوائه ، فحثّ خُطاه صاعداً إلى قمة الجبل الشاهق ، وقد حمل اللفافة بين أنيابه ، والطفل بداخلها فاقد الوعي .

حينما وصل الضبع الأرقط إلى أعلى الجبل وهو يحمل الطفل بين أنيابه ، وجد عند قمة الجبل مجموعة كبيرة من الضباع في انتظاره ، وما أن وقعت أعينُها عليه ، ورأت تلك الفريسة التي يحملُها بين فكيْه ، حتى هجمت عليه دَفعة واحدة ، كل

ضبع منها يُريد أن يفوز بالفريسة التي يحملها الضبع المُرقّط بين فكيه .

وبدأت المطاردة بين الوحوش الضّارية الجائعة على قمة الجبل الضيقة ، التي كانت مساحتها لا تزيد عن مساحة غرفة صغيرة .

الوادى الأخضر

كان الجبل الذي دارت فوق قمّته معركة الضّباع شاهق الارتفاع ، ينحدر جانبه الذي يقع إلى جهة الوادي انحداراً خفيفاً يمكّن الضباع وصغار الحيوانات من صعوده ، وكان يقف في قُبالة ذلك الجبل من الجهة الأخرى جبلٌ آخر يشبهه تمام الشبه في تكوينه لعلّه نصفه الثاني ، أو شقّه الآخر ؛ فجانب هذا الجبل والجانب المقابل له من الجبل الآخر متشابهان ، يقفان قُبالة بعضهما كأنهما جداران ، ليس بهما أي نتوء أو بروز ، كما لو أنهما كانا جبلاً واحداً ، ثم شق بسكين كبير حاد ، ثم أُبعِد كلُّ شِق منهما عن الآخر ، أما المنطقة التي تكوّنت بين شِقي الجبل ، وفي قاع تلك الهاوية السحيقة فكانت عبارة عن أيكة غناء ، تسقط عليها المياه من أعالي الجبال ، فتروي أرضها ونباتها ، وتُحيلها إلى جنة مُخضرة ، مليئة بالنباتات الصغيرة المورقة ، على مدى فصول العام ، تتخلّلها أشجار الفاكهة ، المحمّلة بالثمار الشهية ، ويجري فيها نهر صغير ، تُغذيه عينٌ تنبعُ من أعلى أحد شِقَّي الجبل ، وينحدر ماؤُها عذباً صافياً ليجري خلال الأيكة ، شاقاً لنفسه أُخدوداً معرَّجاً كتعرُّج الثعبان في مشيه ، وتسد جنبات ذلك الوادي صخور كبيرة الحجم ، تغطيها أشجارٌ

ضخمة عملاقة ، وهي دوماً مورقة ، متشابكة الأغصان ، وقد ارتفعت إلى علوٍّ هائل ، حتّى أصبح ذلك الوادي الصغير وكأنه حديقة عامرة بكل ألوان الجمال ، مغلقة ، لا تدخلها إلا الطيور ، تأتيها من أعالي الجوّ ، فتتوالد فيها وتسكنها بعض صغار الحيوانات التي وجدت في ذلك المكان مأمناً لها من الوحوش الضارية ، التي لا تجد سبيلاً إلى اقتحامه والدخول إليه .

دارت المعركة حامية بين الضباع ، كلّ واحد منها يريد الفوز بذلك الطفل ، الذي كانوا يرون فيه الوجبة الشهية ، والعشاء المشبع اللذيذ .

وضيقت الضّباع الخناق على الضبع الأرقط ، وأخذت تنهشه من كل جانب ، حتّى أعياه الدفاع عن نفسه ، وأُثخن جسده بالجراح ، وكان يعلم — بغريزته — ما ينتظره ؛ فالضّباع ما أن يصاب أحدها بجرحٍ ، فينذف منه الدّم ، حتّى تعدُّه بقية الجماعة فريسة لها وغنيمة ، فتقضي عليه ، وتنهش لحمه ، وتفري عظمه ، وتتخذ منه وليمة عظيمة ؛ فالضّباع لا ترحم حتّى واحداً منها إذا اشتمّت فيه رائحة الدّمِ .

كان الضبع الأرقط يعرف كل هذا بغريزته ، فأصبح يدافع عن نفسه ، وعن فريسته التي يحملها ، وحاول أن ينجو ، فاقترب من حافة الجبل ، ووقف مكشّراً عن أنيابه ، متحفزاً للدفاع عن نفسه ، أما بقية الضّباع ، فقد وقفت في قبالته ، تنظر إليه ، لا تغفلُ أعينها عنه ، تنتظر اللحظة التي يغفل فيها لتهجم عليه هجمة واحدة تقضي بها عليه ، وتختطفُ منه فريسته .

وأحسّ الضبع الأرقط بالخطر ، وعلِمَ أن حياته أصبحت

مهددة ، وأنه قد يصبح بعد لحظات طعاماً لأصدقائه الضباع ، ففكر في التخلص من فريسته ، والتخلي عنها ، إلى حين ، وقرر أن يفرغ فمه أولا حتى يتمكن من الدفاع عن نفسه بكل قوته ، وبكافة أسلحته . فاقترب من حافة الجبل ، ثم حنى رأسه ببطء شديد ، وأسقط اللفافة التي بها الطفل على الأرض ، وجعلها خلفه .

وتحركت الضباع نحوه ، مضيِّقةً عليه الدائرة ، وخطا هونحوها مكشراً عن أنيابه تاركاً الطفل في لفافته خلفه على الأرض . عند طرف الجبل ، عند حافة الهاوية السحيقة .

وكشرت الضباع عن أنيابها ، وأصدرت أصواتاً وحشية ، وهجمت قافزة على الضبع الأرقط ، حتى تفترسه ، فخاف الضبع الأرقط ، وأحس بأنه يواجه الموت ، فتراجع إلى الوراء – فجأة – وقد أصابه فزع شديدٌ ، تراجع عدة خطوات سريعة مضطربة ، ورفس بقدمه الخلفية الطفل في لفافته ، فتدحرجت اللفافة ، وبداخلها الطفل ، وسقطت في الهاوية ، بين شقيّ الجبل ، حتى استقرت في الوادي الأخضر ، وكان سقوطها على أكمة مخضرةٍ ، غزيرة النبات ، طرية الحواشي ناعمة .

في الوادى الأخضر

أشرقت شمس اليوم التالي على الجبل والوديان ، وأضاءت بنورها ، فاستبانت على ضوئها مجموعة العظام على قمة الجبل ؛ تلك العظام هي كل ما تبقى من الضبع الأرقط ، الذي كان يمني نفسه بعشاء طيب لذيذ – هو الطفل الذي نسيه أهله في قلب الوادي – فإذا هو نفسه يصبح عشاء وفيراً لإخوانه الضباع .

أما الطفل ، فقد شاءت إرادة الله أن يسلم من كل أذىً ، بعد أن هيأ الله له من لطفه – ذلك الفراش اللين الوثير ، تلك الأكمة الغزيرة النبات ، التي سقط عليها ، ولم يشعر – حتى – بسقوطه ، إذ كان قبلها في غيبوبة بسبب ما جرى له من الضبع الأرقط ، ورفاقه الضباع الأخر .

أفاق الطفل من الغيبوبة على لسعات أشعة الشمس على جسده الضعيف الغض ، وكان جائعاً ، فأخذ يبكي ويصرخ ، وقد كان المسكين حتى الأمس إذا بكى ، أسرعت نحوه أمه الشفوقة ، ومدت إليه يدها الحانية تطعمه وتسقيه ، وتهدهده وترعاه ، أما في هذا الصباح ، فقد بكى ، وطال بكاؤه ، وصرخ ، وعلا صراخه ، ولكن ما من مجيب .

وتعب الصغير من البكاء ، فخفت صوته ، ويئس من وجود أمه أو مرضعته بجواره ، فأخذ يبكي بصوت أبح خافت فترة ، ثم يصمت فترة أخرى ، ويتلفت حوله في فزع واضطراب ، وقد تملكه – مع الخوف – العجب مما يرى ، ينصرف نظره إلى الأشجار الباسقة العالية حوله ، ثم يتحول بنظره إلى جهة النهير الذي يجري بالقرب منه وإلى مائه الجاري ، وقد فتح عينيه عن آخرهما ، قد بهرته خضرة الأرض حوله ، وتلك الألوان التي لم يعتد بصره على رؤيتها ، يتأمل كل هذا بكل حواسه ، في هدوء نام ، ثم لا يلبث أن يلفت نظره سقوط ثمرة من ثمار الشجر على الأرض ، فيبدد ذلك هدوءه ، ويلتفت ناحية سقوطها فزعاً مُلتاعاً .

مضى وقتٌ طويلٌ على الطفل الذي أراد له الله – سبحانه

وتعالى – أن يعيش ويحيا ، فحفظه من أنياب الضبع الأرقط ، حينما حمله بين فكيْه ليأكله .

وحفظه من الضباع الجائعة ، على رأس الجبل ، حينما تناوشته ، كل واحدٍ منها يريد أن يملأ به معدته الخاوية ، ويشبع به جوع بطنه .

حفظه الله تعالى – أيضاً – حينما سقط من ذلك العُلوِّ الشاهق ، من أعلى قمة الجبل ، إلى قاع الهاوية ، فهيأ له أكمةً مورقةً ، وفرشاً ليّناً « فاللهُ خيْرٌ حافِظاً وهُوَ أرْحَمُ الرَّاحمينَ » ، وقد حفظ تبارك وتعالى ذلك الطفل من كل تلك الشرور والمهالك ، فكان محفوظاً – دوماً – بلطف الله القادر ، ورعايته ، لذلك فقد رأينا أن نطلق عليه اسم « محفوظٍ » ، علماً عليه ، نُعرِّفُه به ، فهو لا يعرف لنفسه إسماً .

مضى وقتٌ طويلٌ على (محفوظ) وهو على تلك الحال ، يبكي تارة ، ويصمت تارةً أخـرى ، فيتلفت حوله متعجباً مندهشاً خائفاً ، وازدادت حرارة الشمس فآلمت جسده وعينيه ، وكان جسده عارياً ، إذ أن قطعة الجلد التي كانت أمه قد لفتْه بها قد سقطت بعيداً عنه عندما سقط على تلك الشجيرات التي تكوِّن الأكمة .

وتألم جسد محفوظ الصغير ، وازداد جوعه وعطشه ، وهم بالبكاء ، ولكنه عاد وتذكر أن البكاء لم يفدْهُ ولم يجلب له العون والمُساعدة كما اعتاد في الماضي ، فحاول الوقوف ، وكان قد تعلم الوقوف ، والمشيَ على قدميه منذ أشهر قليلة ، فلما

وقف عاقته بعض فروع النبات ، فسقط وهم بالبكاء مرة أخرى، ومرة أخرى تذكر أن البكاء لا يجلب له معونة أحدٍ .

وقام (محفوظ) واقفاً على قدميه ، فسقط مرة أخرى ، وقام ثم تقدم خطوتين وهو يطأ بقدميه الصغيرين نباتات الأكمة ، وعاد فسقط ، وسكت ، وقام فوقف على قدميه ، وخطا فوق النباتات حتّى وصل إلى الأرض الثابتة ، المكسوة بالأعشاب ، ومشى خطوات وهو يتعثر — في أول الأمر — ثم اعتدل خطوُهُ وسار في خطٍ مستقيم نحو شجرة كبيرة ، ظليلةٍ ، من أشجار الفاكهة ، روقف في ظلها ، فأحس بالراحة ، ولكن الجوع كان قد بلغ منه مبلغاً عظيماً ، وبغريزة الطفل ، التقط ثمرة من ثمار تلك الشجرة — وكان الكثير من تلك الثمار قد سقط على الأرض — فتناول منها واحدة ، وأخذ يقضم منها بسهولة ويسر ، فقد كانت هشة طرية ، حلوة الطعم ، ففرح ، وجلس على الأرض ، وتناول منها ثمرة أخرى ، وثالثة ، ورابعة ، وكان يأكل في نهم شديد .

ولكنه توقف عن الأكل فجأة ، وسقطت الثمرة من يده ، فقد شاهد — من بعيد — شيئاً يتحرك بين الشجيرات الصغيرة .

وأحس (محفوظ) بالفرح أولا ، ثم بالخوف ، ثم عاد فاستأنس بوجود مخلوق حيٍ معه في ذلك المكان .

ومضت لحظات . . فتبين (محفوظ) ذلك الشيء . . ؛ لم تكن هيئة ذلك المخلوق غريبة عليه ، فكثيراً ما رأى شبهه ، بل أنه كان يشاهده في كل يوم ، . . مخلوقٌ يمشي على أربعة أرجل !! ليس هذا بغريب عليه . .

والحقيقة أن ما رآه (محفوظ) لم يكن غير غزال خرج من الأحراش ، ولكن لشبهه بالأغنام والخراف فإن الصغير لم تزعجه رؤيته ، بل استأنس به ، وفرح .

وقام (محفوظ) من مكانه مسرعاً ، ليلحق بالغزال ، وكان الغزال – في تلك اللحظة – قد اتجه نحو النهر الصغير ، وأخذ يشرب من مائه .

وتقدم (محفوظ) نحو المكان الذي كان يقف الغزال عنده ، بقرب النهر ، والتفت الغزال نحوه ، وبدا التعجب في حركاته ، ولفتاته ، واستغرق فترة يطالع في هذا المخلوق الذي يراه لأول مرة ، ثم أجفل فجأة ، وجرى حيث اختفى في الأحراش .

أما (محفوظ) فقد تعلم من الغزال درساً مفيداً ، وأضاف إلى خبراته القليلة خبرة جديدة ، وهي أنه يمكن للمرء أن يشرب من مجرى الماء بدون إناء ، فتقدم نحو النهر ، وبرك على ركبتيه واعتمد على يديه ، واتخذ هيئة كهيئة الغزال ، ثم وضع فمه على الماء ، وأخذ يرشف منه ، ويشرب – تماماً – مثلما فعل الغزال قبل قليل .

أحس الطفل المسكين (محفوظ) بالنشاط يدب في جسده ، بعد أن ارتوى من ماء النهر العذب ، وتلفت ينظر حوله ، يبحث عن الغزال مرة أخرى ، فلما لم يجده ، مد بصره ينظره بين الشجيرات حيث ذهب الغزال .

وبفطرة الطفل الساذج ، تقدم (محفوظ) ، وأخذ يمشي بين الأحراش ، بحثاً عن الغزال ، الذي مضى قبل قليل ، في الطريق ذاته ، وكان يمشي على الحشائش الخضراء ، يطأها

بقدميه الصغيرتين الحافيتين ، مخترقاً الشجيرات الصغيرة ، يتبع الغزال الذي رآه منذ قليل ، يسلك ذلك الطريق ، ويمشي إلى داخل الأحراش .

وكان الصغير يتوقف عن المشي كلما شاهد فراشة تطير بالقرب منه ، تنتقل من زهرة إلى زهرة ، أو رأى حشرة تدب على الأرض بين الحشائش ، أو طائراً يطير من فرع إلى فرع . كان يقف وقد نسي تماماً أمر الغزالة التي يتعقبها ، إلى أن وجد نفسه عند أكمةٍ مخضرةٍ ، ترقد عندها بعض الغزلانِ .

فرح الطفل (محفوظ) ، وجرى نحو الغزلان ، ففزعت منه ، وارتبكت ، وفرت ، إلا واحدة منها ، وكانت تلك الغزالة التي لم تفر ترقد ، ويرقد معها وليدها الصغير ، يرضع من ثديها ، لعلها لم تشأ أن تتحرك حتى لا تزعج رضيعها .

ابتسم الطفل في براءة ، وتقدم نحو الغزالة المرضع ، حتى جلس بالقرب منها ، وأخذ يداعب وليدها الصغير ويلاعبه .

وترك ولد الغزالة ثدي أمِّه ، وأخذ يلعق يدي (محفوظ) بلسانه ، أما (محفوظ) فقد سرَّه تلك المداعبة ، فأخذ يضحك في براءة شديدة .

مضى وقت طويل ، والطفل والغزال الصغير يتداعبان ويتلاعبان ، وفجأة هبت الغزالة الأم واقفة ، وأخذت تمشي ، فتبعها وليدها ، وتبعهما (محفوظ) الصغير .

ظلت الغزالة الأم سائرة ، يتبعها ابنها الصغير ، يسيران في الوادي الأخضر ، يتنقلان من مكان إلى آخر ، وكان محفوظ

الصغير يتبعهما يتعثر - أحياناً - فيسقط على الأرض ، ثم يهب واقفاً فيواصل السير خلفهما مسرعاً ؛ لم يتخلف عنهما لحظة واحدة ، فإذا بلغوا أرضاً ذات ثمار ، تناول (محفوظ) منها ، وأكل .

وعندما مالت شمس ذلك اليوم نحو المغيب ، واتجهت الغزالة الأم ووليدها إلى منطقة ذات أشجار غزيرة - عند طرف الوادي - تبعهما (محفوظ) إلى هناك ، وهو لا يدري لماذا تتجه الغزالة الأم نحو ذلك المكان .

ما إن بلغ (محفوظ) ذلك المكان مع الغزالة ووليدها حتى كانت الشمس قد غابت تماماً ، وبدأ ضوء النهار يختفي ويتلاشى عن الوادي ، فرقدت الغزالة الأم على الأرض بين الحشائش ، ورقد وليدها بالقرب منها ، بعد أن تناول ثديها - بين شفتيه ، وأخذ يرضع منه حتى نام ، أما محفوظ فقد استوحش في باديء الأمر ، إذ افتقد أمّه ، وافتقد حنانها ، وهدهدتها له - عند النوم - وهم بالبكاء ، ولكنه تذكر من تجربته في ذلك اليوم - أن البكاء لا يجدي ، فاستسلم ، ورقد على الأرض ، بالقرب من الغزال الصغير ، وأخذ ينظر فيما حوله ، ثم نام .

وقبل أن يحل الظلام تماماً ، لجأ إلى ذلك المكان عددٌ آخر من الغزلان ، ولعل ذلك المكان كان هو المأوى المفضل لمبيتها ، كانت الغزلان تأتي إليه جماعات وفرادى ، فترقد على الحشائش ، وتنام هناك .

أما (محفوظ) فقد شُغِلَ بتلك الغزلان فترة ، ثم سرعان ما استغرق في نومٍ عميقٍ ، فقد كان جسده الصغير مُتْعباً بسبب المسافات الطّويلة التي مشاها على قدميه - أثناء النهار .

نام (محفوظ) نوماً عميقاً ، لم يستيقظ منه إلا عند الفجر ، فأخذ يتلفت حوله ، وقد سره منظر الغزلان النائمة حوله ، فشُغِلَ بها مرةً أخرى .

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى استيقظتِ الغزلان الواحدة تلو الأخرى ، ثم تجمعت في مكانٍ واحدٍ ، وسارت في سربٍ تبحث عن المرعى الطيب والماءِ .

وتَبِــعَ محفوظٌ الغزلان ، وسار معها يبحث هو أيضاً عن الثمار ليأكلها ، وعن الماء ليشرب منه .وظل طوال يومه يسعى مع ذلك القطيع من الغزلان ، يسير معها إذا سارت ، ويستريح إذا استراحت تحت ظلال الأشجار ، ويرد معها الماء إذا وردت الماء ، فيشرب مثلما تشرب هي ، ثم يصدر معها .

أما الغزلان ، فقد اعتادت على وجود ذلك الطفل الآدمي بينها ، فلم تعد تنفر منه أو تخاف .

مضت الأيام في الوادي الأخضر على (محفوظ) وهو يتبع جماعة الغزلان ؛ يسير حيثما سار القطيع ، يرعى معه في مراعيه ؛ يقيل إذا قالت الغزلان ، ويصحو إذا صحيت . يقضي كل نهاره مع تلك المجموعة من الغزلان ، يسرح معها في الوادي ، ويمرح ، ويجري مع الصغار منها من أترابه ، ويتسابق معها معظم النهار حتى اكتسب مهارة عجيبة في الجرى ، وسرعة فائقة في العَدْو ، فكان يسبق بعض صغار الغزلان ــ أحياناً ــ ويتفوق عليها في العدو . فإذا جنّ الليل ، وأوت الغزلان إلى أماكن تعرفها بغريزتها للمبيت أوى معها ، ولجأ إلى تلك الأماكن ، فنام بين أفراد القطيع ، وكأنه واحدٌ منه ، وقد نسى كل

ما كان بينه وبين أمه أو مرضعته ، بل نسي كل علاقة له ببني الإنسان ؛ وقد ساعد على ذلك صغرُ سنِّه ، وقصرُ الزمن الذي أمضاه بين أهله من بني البشر ، وسرعان ما انمحت من عقله صورة الإنسان ، ولم يعدْ يذكر له شكلا ، بل أصبح — وقد مضى عليه عامان في الوادي الأخضر — لا يعرف له أصلا ، ولا أهلا ، ولا يعرف لحياته مبدءاً ، إلا ذلك القطيع من الغزلان ولا يعرف من الدنيا أرضاً ، إلا ذلك الوادي الأخضر ، الذي يحدُّهُ شقاً الجبل ، وتسد جنباته الصخور العالية ، والأشجار وارفة الظلال . وقد سكن في روعه ، واستقر في عقله أن ما حوله هو العالم كله ، وأن ليس هناك سواه ، فحكمه قد أصبح حكم البهيم الذي اكتفى من دنياه بما وجده من ثمار فأكلها ، وماء فشربه ، وعشيرةٍ هي قطيع الغزلان فألفه ، وأنس إليه ، وشاركه كل دقيقةٍ من دقائق وجدانه ، فقد كان (محفوظ) يُهمْهِم بمكنون نفسه ، ليعبر عما يحسّهُ من خوف أو ألمٍ ، أو جوعٍ ، مثلما تفعل الغزلان ، وكان القطيع يستجيب لهمهمات (محفوظٍ) مثلما يستجيب لأي فرد من أفراد القطيع من الغزلان . وكان هو بالمثل تصلُ إلى أذُنه تلك الهمهماتُ ، ذاتُ التنغيم والإيقاعات المختلفة المتباينة ، فيفهمها عقله ، وتستجيب لها عواطفه ، فيلبي ، ويحنو على الواحد من أفراد القطيع أو يحميه ، أو ينجده ، كما تفعل الغزلان بعضها مع بعضٍ .

لم يشك (محفوظ) يوماً في أنه واحدٌ من هذا القطيع ، أو أنه ليس فرداً من أفراده ، إلى أن بلغ عمره السادسة : وعندها بدأت تتفتح مداركه على بعض حقائق الحياة ، وبدأ عقلُه الإنساني يميز له بعض الشواهد ، والمظاهر الملموسة ؛

فقد لاحظ أن جسده ليس كأجسام تلك العشيرة من الغزلان ، فجسمه لا يكسوه ذلك الوبر الخَشِنُ الملمس ، ورأسه ، وعيناه ، وأُذُناه . . كل تكوينه ليس كتكوينها ، ولا مشيه كمشيها .

واستشعر محفوظ الغربة بينها ، ولو أنه لم يحس بالنفور منها ، فهي العشيرة ، وهي الجماعة والأهل ، هي القطيع الذي نشأ فيه ، وترعرع بين أفراده .

قضى محفوظ – بعد ذلك – أياماً وليالي طويلة وقد أهمّهُ هذا الأمر ، وشغل عقله الصغير ، وإن لم يُفارق القطيع في روحاته وغدواته ، ولم يبتعد عنه لحظة واحدة ، بل كان يشعر في قرارة نفسه – وعلى الرغم مما يدور في عقله ، وما استقر في وجدانه – أنه لا ملجأ له إلا هذه الجماعة من الغزلان ، ولا أهل له إلا هي ، ولا مأوى إلا حيث تأوي ، ولا حياة له إلا في معيتها ، ولا صُحبةَ له في هذا الوادي الفسيح إلا صُحبتها .

ومضى عامٌ ، وبلغ (محفوظ) السابعة من عمره ، وتيقن – حينئذ – أنه ليس واحداً من تلك الغزلان ، ولكنه – في ذات الوقت – أحس نحوها بحب جارف ، وامتنان زائد ، تلك المجموعة التي آوته وضمته إليها ، وقَبِلتْه بينها على الرغم من أنه دخيل عليها ، أما أنه غريب على تلك المجموعة فهذا ما لم يعد يشك فيه ، بعد أن استقام عوده ، وقوىَ ، وأصبح له قوامٌ بعيدَ الشبهِ عن ذوات الأربع ، التي ألَفت شكله ، وهيئته ، جيلا بعد جيل ، فلم تعُدْ تطيق فراقه ، ثم ازداد عطفه نحو المجموعة إذ بدأ يحُس بقوته ، وقدراته ، ومهاراته ،

وما يمكن أن يفعل بيديه من أعمال تعجز الغزلان عن فعلها ، فغاية قدرتها العدْوَ السريع ، وهو لا يقل عنها في سرعة العدو ، فصار – وله عقل الإنسان – الذي لا يقاس بعقول الحيوان – صار يساعد جماعة الغزلان بكل ما هيأ الله له من عقل ذكي ، ومهارة ، حتى أصبح زعيماً لقطيع الغزلان ؛ يسير في المقدمة من القطيع ، يحمل الصغار منها بين ذراعيه ، تتبعه الأمهات ، ثم باقي القطيع ، ولا ينقطع التفاهم بينه وبينها بهمهمات هي ما يعرف من لغة ، يسير ، يتبعه القطيع ، مسلماً له بالقيادة أينما سار ، وحيثما اتجه ، فقد أصبح – كما لو كان واحداً منهـا – يعرف مكان المرعى الطيب ، ويعـرفُ متى يَرِدُ بالقطيع الماء ، ومتى يصدر به عنه ، ومتى يبدأ المسير نحو أوكار المبيت الآمنة ، ومتى يستيقظ مع القطيع عند الصباح .

وهكذا مضت الأيام (بمحفوظ) ، كل يوم يؤكد له حقيقة أنه ليس من جنس هذا القطيع ، ولكن – في ذات الوقت – يؤكد له حبه وتعاطفه وانتماءه لهذه المجموعة من المخلوقات الوديعة المُسالمة ، يحس بما تحس به ، ويتألم لما تتألم له ، ويسعدُ بما تسعد ، فلم يكن يقلُّ عنها صفاء نفس ، وميلا للسلام والهدوء ، فهو ما زال على الفطرة ، لم تخدش نفسه الصافية فعلة شر من فعال البشر ، أو تستقر فيها صفةٌ من صفاتهم السيئة من حقد ، أو أنانية ، أو – حتى – غضب .

مضت الأعوام بمحفوظ ، وهو في الوادي الأخضر ، كلما ازداد جسمه قوةً ، واكتسب عقله فطنة وإدراكاً ، كلما بذل ذلك كله لصالح جماعة الغزلان ، التي نشأ بينها وترعرع ، وكان يشعر نحوها شعور الابن البار نحو أهله

وعشيرته ، وكان يبذل كل جهد من أجلها ويسَخِّرُ كل طاقته وقدرته ومهارته لخدمتها .

وبلغ الصغير العاشرة ، وبدأت تجيش بنفسه أفكار عجيبة ، غريبة عليه ، إذ بدأ يحس — في بعض الأحيان — بميل نحو التحرر من تلك الحياة الرتيبة ، التي تسير على منوالٍ واحد . مرعى ، ونهرٌ ، ومبيتٌ . ثم استيقاظ ، فمرعىً ، فشربٌ من ماء النهر ، فمرعى وقيلولة ، ومرعى ومبيتٌ .

تاقت نفس (محفوظ) للانطلاق ، والبحث في خبايا بعض جوانب الوادي ، وأخذت بعض الأسئلة تجول في عقله بإلحاح ، ماذا هناك عند الصخور البعيدة العالية ؟ ماذا لو أنه صعدَ تلك التلة وانحدر منها مُنزلقاً ؟ ماذا لو طار كما تطير الطيورُ ؟ وماذا لو صَعدَ إلى أعلى تلك الشجرة ، وجلس بين فروعها .

وغالبَ (محفوظ) تلك الرغبات في نفسه أياماً عديدةً ، فصارت تراودُه في أحلامه إذا نام ، وفي خياله إذا استيقظ .

فأخذ يميل بالقطيع أحياناً بعيداً عن طريقه المعتاد ويتوغل به في أماكن يرغب هو في الوصول إليها ؛ أماكن ليس فيها ما يطلبه القطيع من مراعٍ وأعشاب ، فيستوحشُ القطيع وينكر المكان ، فتثقل منه الحوافزِ ، ويتوقف بعض أفراده فيضطر (محفوظ) إلى العدول عن المُضيِّ ، بعد أن يستقر في نفسه هو أيضاً بعض ما تحس به الغزلان من وحشة ، بل خوف من هذا المجهول الذي يطرقه لأول مرة ، وتلكَّ الأماكن والبِقاع من أرض الوادي التي لا يشتّمُ فيها رائحة الكلأ الذي اعتاد أن

يرتاده ، فقد أصبح كمثل غزلان القطيع ، تحكم عقله غرائز معينة ، وتوجه فكره أمورٌ فطرية اكتسبها بحكم وجوده بين تلك المجموعة من الحيوان .

ولكن الأيام أججت في نفسه تلك النزعة نحو الاكتشاف ، والرغبة في اقتحام المجهول ، والبحث في سر ما حوله ، وكُنْهَ كلّ ما يحيطُ به من القريب والبعيد .

وغالب (محفوظ) تلك الرَّغبة طويلا ، وآثر أن يستسلم لحياة الدَّعة والرتابة كما تفعل بقيةُ أفراد القطيع ، ولكنه عاد فبعث في نفسه تلك الحقيقة التي توصل إليها ، من أنه ليس يُشبهُها في كثيرٍ من سلوكه وتكوينه .

نحـو الصـخور

في ذات يومٍ – والقطيع كله قد أخلد للنوم والراحة ، في وقت الظهيرة ، عند ظل شجرة وارفة – غلبت على (محفوظ) رغبة أملتها عليه فطرته الإنسانية وزينها له عقلُه الصبياني ، وكان قد بلغ – يومئذٍ – الثانية عشرة من عمره .

كان يفترشُ – في تلك الساعة – العُشبَ ، يتوسد يده ، ووجهه إلى الجهةِ التي بها الصخور ، فأخذ يتأملها ، وهاجت في نفسه الرغبة في الوصول إلى تلك الصخور ، ونسى كل ما حوله ؛ نسيَ القطيع ، وتقاليده الفطرية ، نسى ارتباطه به كل تلك السنوات الطوال ، وانتصب واقفاً ، وبدون أن يُلقى نظرةً على ما حوله من الغزلان ، تقدم ، وبسرعةٍ كأنما يخشى أن تبرد عزيمته . ومضى في اتجاه الصخور البعيدة .

وهبت بعض الغزلان واقفةً ، مستنكرةً قيام محفوظ قبل الموعد المعتاد ، وهم بعضها أن يتبعه كالعادة ، ولكن غريزتها غلبت عليها ، فظلت قابعة في أماكنها ، إلا واحداً منها ، وكان (محفوظ) يوليه عطفاً زائداً ، وحناناً ، ويميل إليه أكثر من ميله لبقية أفراد القطيع ، هذا الغزال الوفيُّ ، المُحِبُّ لمحفوظ ، تبعه ، وهو لا يدري إلى أين المسيرُ .

وسار محفوظ ، يقطع المسافات ، ويخترق المجهول ، تطأ

قدماه أرضاً لم تطأها قبل ذلك ، يتبعه على البعد صديقه الغزال ، يُسرعُ خلفه تارةً ، ويقف تارة أُخرى متردداً ، يتلفت في حيرة ، ويستغرب ما يرى حوله من غريب الأرض والنبات ، ويرسل بصره إلى حيث ترك بقية القطيع ، ثم يعود مرة أُخرى يتبع محفوظاً .

أما محفوظ ، فكان مدفوعاً بدافع قويٍّ ، لم يستطعِ التغلب عليه ؛ دافع كان يدفعه ليمضي إلى الأمام بدون توقف ، ومن غير وعي منه .

ولكنه — على الرغم من ذلك — توقف فجأة ، واستدار لينظر إلى حيث ترك عشيرته وأصحابه من الغزلان ، ولكن الأشجار ، والمرتفعات من الأرض ، حجبت عنه الرؤية ، فغاب عنه موضع الغزلان ، ومكان القطيع ، وهو الذي لم يفارقهم السنين الطوال ؛ فغشيت نفسه رعدةٌ من خوفٍ ، وألمّتْ بها وحشةٌ ، وفكر في الرجوع عدواً إلى مكانهم ، حتّى يدفن نفسه بينهم ، ويطمئن قلبه المستوحش ، ونفسه الضائعة الملتاعة بأنفاسهم وهمهماتهم ، ولكن تلك الرغبة في الاستكشاف طغت ؛ وتنازعه خاطران ؛ الخاطرِ الأول هو ما تفرضه عليه طبيعته ، وفطرته الإنسانية ، رما يُمليه عليه عقلُه الصبيانيُّ من حُبِّ المغامرة ، واكتشاف المجهول ، وبين عاطفته المرتبطة بتلك المجموعة من العشيرة . وأحس بشيء يجيش في صدره ، وبكيانه يهتز ، وبرغبة قوية في التنفيس عن نفسه ، وسقطت دمعة على خده ، وسالت حتّى بلغت طرف فمه ، ولعلها أول دمعة تسقط من عينيه منذ أن وعى عقله وأدرك . . ورفع يده يتلمس بأصبعه الماء السائل على خده ؛ فالتقطه بأصبعه ، وحاول أن يراه ، ولكن الدموع

كانت تملأ عينيه ، وتعشى بصره ، ومن خلالها رأى صديقه الغزال يقترب منه ، ويلعق يده بلسانه ، عند ذلك تلاشت آخر مقاومة له في البعد عن القطيع .

وجثا (محفوظ) الحزين على الأرض ، وأخذ يتشمم الغزال ، ويحتضن عنقه ، ويهمْهِم همهمات حنونة مؤثرة .

ثم عاد . . عاد مسرعاً ، إلى حيث يرقد القطيع ، وما إن وقعت عيناه على الغزلان الراقدة ، حتى نسى كل ما كان يعتزمه من مُفارقتها ، ولو إلى حين .

أما الغزلان فقد هبت مع قدومه ، واجتمعت حوله ، وهي تهمهم في حنان كأنما تُرحبُ به ، وتُبدي تشوقها له .

الصغير المفقود

مضت الأيام – بعد ذلك – على (محفوظ) ، ولم يُخالج فكره أمر الابتعاد عن قطيع الغزلان ، أما أمر الصخور ، واكتشاف جنبات الوادي ، فقد صرف النظر عنه تماماً .

وانقضى زمنٌ طويلٌ ، ولكن حدث ذات يوم ، أن استيقظ (محفوظ) عند الصباح على همهمة حزينة ، صادرة من إحدى الغزالات ، فهم منها – على الفور – أن صغيراً من أفراد القطيع قد فُقِدَ . ففتح (محفوظ) عينيه ، وتلفت حوله ، فإذا بإحدى الغزلان ، من الأمهات تقف بالقرب منه ، زائغة البصر ، مضطربة ، تجول بعينيها ، تبحث عن رضيعها ، بينما تُطلق صوتاً حزيناً مؤثراً بين اللحظة والأخرى ، عند ذلك أخذ (محفوظ) – أيضاً – يبحث ويُراقب بعينيه ، يفتش عن

الصغير المفقود ، وهو يعرفه حق المعرفة ، فليس من بين أفراد القطيع صغاراً أو كباراً من لا يعرفه (محفوظ) ، ويعرف كل شيء عنه ، بل أنه شَهِدَ مولدَ معظم أفراد هذا القطيع .

تذكر (محفوظ) شكل الصغير المفقود ، وحجمه ، وأعاد البحث عنه بين أفراد المجموعة ، ولمّا لم يجده هب واقفاً ، وقد أزعجه هذا الأمر ، إزعاجاً شديداً ، وسار مُبتعداً عن القطيع قليلا ، يبحث عن الصغير المفقود بين الأحراش القريبة ، وخلف الأشجار ، والصخور ، وفي كل مكان .

وكان (محفوظ) وهو يبحث عن الصغير يبتعد قليلا قليلا عن القطيع ، فقد كان كلما رأى أكمةً بعيدة توجه إليها ، وكلما شاهد حرشاً مضى نحوه يبحث ويفتش ، وفي الوهاد ، وفي الحفر ، كان يفتش عن الصغير ويبحث ، لا يشغل باله إلا فقدانه ، ولا هم له إلا أن يجده . وكانت قدماه — وهو في هذا — تقودانه إلى أماكن لم يغشها ، قبل ذلك ، وأرض لم يطأها منذ أن حل بالوادي ، ولكنه لم يتنبه لذلك ، إذ أن ذهنه كان منصرفاً إلى أمر الصغير الضائع ، وهمه كان مُنصباً في العثور عليه .

وفجأة توقف (محفوظ) ، وقد غمره إحساس غريب هو خليط من الخوف والفرحة ، والرهبة . والسعادة ، والتردد وحب المغامرة ، فقد وجد نفسه عند منطقة الصخور ، في حافة الوادى ، عند نهايته القصوى ، فها هي ذي الصخور تقف أمامه عالية شاهقة عاتية ، تسد عليه الطريق . . الصخور . . الصخور التي طالما شاقته أن يصل إليها ، فلم يتيسر له ذلك . . الصخور التي طالما

كان يراها في منامه ، ويرى أنه يتسلقها ، ها هي ذي تقف أمامه عالية ، صامتة ، متهيبة . .

ظل (محفوظ) واقفاً في مكانه ، تتملكه الدهشة والرهبة معاً ، يتطلع إلى الصخور وقد غشيه شعور بالسرور والخوف معاً ، وسرح بخياله ، فأخذ يتخيل نفسه تارة ، وهو يقف فوق قمة من قمم تلك الصخور ، يُطل على الوادي الأخضر ، وتارة يرى نفسه – بعين الخيال – وهو يتسلقها ، ويقفز بينها ، ويثب من صخرة إلى أخرى . .

وهاجت نفس (محفوظ) – الصبيّ – وسيطرت عليها الرغبة في المغامرة ، فلم يتمالك أن أسرع نحو الصخور ، التي لم يكن يفصله عنها غير بضع خطوات ، ، وتقدم نحوها في تردد ، ولكن ما إن بلغها – حتى تسلقها – في باديء الأمر – وثباً ، حتى بلغ موضعاً عالياً منها ، عند ذلك توقف ، ودار بجسده يستقبل الوادي الأخضر ، ليرى كيف يبدو من ذلك الإرتفاع الشاهق ، الذي لم يصعد إلى مثله من قبل – ولطالما شاقه أن يفعل . .

وقف (محفوظ) مستقبلا الوادي بوجهه ، وأخذ يجول فيه ببصره ، يمسحه مسحاً ، من أقصاه إلى أقصاه ، وكان كل شيء فيه واضحاً ، فقد كانت شمس الضُحى تُرسل أشعتها القوية على الوادي ، فيستبين على ضوئها كل شيء ويتضح .

أخذ (محفوظ) يتأمل كل ما في الوادي من شجر ومياه ، وأنهار ، وما فيه من حشائش ، وصخور متناثرات ، هنا وهناك ، ورمال ، وحصىً . . هنا منطقة المرعى ، التي نقصدها كل يوم ، أنا وسرب الغزلان ، وهذا هو النهر – ليتني كنت الآن هناك ،

أشرب من مائه ، فإني أحس بالظمأ ، وهذا هو الوادي الآخر ، الذي تجد الغزلان فيه المرعى في بعض الأيام ، وتلك الشجيرات الكثيرة ، المتشابكة ، نقضي تحت ظلالها وقت الظهيرة في بعض الأيام ، نستظل بها ، وهناك الأشجار ذوات الثمار اللذيذة الطعم التي أتناول منها ، كلما جعت .

وعاد محفوظ بنظره إلى المنطقة القريبة من الصخور ، وأخذ يتأملها ، إن الأرض هنا تختلف طبيعتها عن بقية أرض الوادي ، فنباتها مختلف ، وتربتها مختلفة .

ولفت انتباه (محفوظ) شيء يتحرك بين الشجيرات القريبة ، فتنبّه ، ودقق فيه النظر ، تُرى ما يكون هذا الشيء .

لم يستبنْ لـ (محفوظ) ذلك الشيء ، في أول الأمر ، فقطب ما بين حاجبيه ، وركّز كل انتباهه ونظره على الشجيرات ، وكم كانت فرحته عظيمة ، حينما تبين له أن ذلك الشيء لم يكن غير صاحبه الغزال الصغير الضائع ، والذي كان يبحث عنه قبل قليل ، فلم يتمالك نفسه من شدة السرور ، والسعادة ، وترك مكانه ، ونزل وثباً ، حتّى بلغ الأرض ، ثم جرى نحو مكان الظّبي الصغير ، فحمله بين يديه ، وعاد به إلى منطقة الصخور ، .

وقف (محفوظ) ، حائراً في أمره ، وهو ينظر إلى أعالي الصخور – حيث كان يقف – ؛ هل يعود بالظبي الصغير إلى أمه ، وينتهي الأمر عند هذا الحد ؟ إذا فعل هذا ، فقد أضاع على نفسه فرصة نادرة ، أتاحتها له الظروف ، بعد سنين طويلة ، فهل يضحي بحلمه الذي طالما تمنى تحقيقه . . ؟ هل يضحي من أجل هذا الصغير ؟ أم هل يضحي بالصغير ؟ فيتركه في مكانه ،

ويعاود الصعود إلى الصخور ، يكشف مخابئها ، ويشبع في نفسه تلك الرغبة التي سيطرت عليه أعواماً طويلة ؟

وحانت من (محفوظ) في تلك اللحظة ، التفاتة نحو الظبي الصغير والتقت عيناهما ، فأحس حياله بإشفاق شديد ، وشعر نحوه بعاطفة حنان قوية ، ولكن رغبته في تسلق الصخور كانت بالقوة ذاتها ، وإشفاقه على نفسه ، وخوفه من أن يعود خائباً ، حزّ في نفسه ، فجلس يفكر ، حتى اهتدى في نهاية الأمر إلى حل يحقق به الغرضين ، فوصوله إلى أعلى الصخور ، رغبة لا بد من تحقيقها ، كما أن إرجاع الظبي الصغير إلى أمه أمر لا بد منه أيضاً ، فالحل إذن هو في أن يؤجل أحد الأمرين إلى حين . . . وأخيراً قرّ قراره ، فقرر أن يؤجل إرجاع الصغير ، ويبدأ بالصعود إلى أعلى الصخور .

أخذ (محفوظ) – عند ذلك – يصنع ما يشبه الحظيرة الصغيرة ، من عيدان الشجر ، التي وجدها بالقرب منه ، وبعد أن أتم صنعها ، وضع الظبي الصغير في داخلها ليضمن أنه لا يفرّ مرة أخرى ، في وقت غيابه عنه ، حينما يتسلق الصخور ، مرة أخرى .

وبعد أن أودع (محفوظ) الظبي حظيرته ، واطمأن إلى ضمان عدم فراره ، انتصب واقفاً ، وألقى على الظبي الصغير نظرة حانية ، ثم أسرع نحو الصخور ، وأخذ يتسلقها وثباً ، وهو فرح مسرور ، وكانت حرارة الشمس في أعلى درجاتها ، وقد انتصف النهار ، وكانت أشعتها المحرقة تصل إلى جسد (محفوظ) الصغير العاري ، وإلى رأسه فتؤلمه ، فأخذ يبحث عن مكان بين الصخور ، يحتمي فيه من حرارة الشمس ، وأخذ يتلفت

حوله ، إلى أن وقعت عيناه على فجوة بين الصخور ، بالقرب من جانب الجبل ، فأسرع نحوها ، ودخل فيها ، ولاحظ حين دخوله إليها ، أنها أوسع مما كان يقدّر لها ، بل لاحظ أنها تمتد عميقاً إلى داخل الجبل .

لم يكترث (محفوظ) – في بادئ الأمر – إلى ملاحظاته تلك ، ولم يُلق لها بالا ، فجلس عند مدخل الكهف ليستظل ويرتاح ، ثم يواصل الصعود ، ولكن حُبه للاستطلاع ، وشغفه بالاستكشاف جعلاه يقف على قدميه ، ثم يتقدم داخل ذلك الكهف ، وقادته قدماه إلى مسافة بعيدة داخل الكهف ، الذي خيل إليه أنْ ليس له نهاية ، ولا له قرار ، وكانت بعض شعاعات من ضوء النهار تصل إلى عمق بعيد من ذلك الكهف .

وتذكر (محفوظ) – فجأة – الظبي الصغير ، وانتظار أمه المسكينة له ، فقرر العودة له سريعاً . واتخذ طريق العودة إلى خارج الكهف ، من حيث دخل ، ثم ، مضى يهبط من أعلى الصخور من حيث صعد ، حتى وصل إلى مكان الظبي الصغير ، فحمله بين يديه وعاد به إلى أمه .

وضع (محفوظ) الظبي الصغير أمام أمه ، التي كانت شبهَ نائمة في تلك اللحظة ، ولكن ما إن اشتمت – رائحة رضيعها ، حتى دبت فيها الحياة – فجأة بقوة . فأخذت تتشممه وتلحسه بلسانها وهي تصدر همهمة حنونة . أما الصغير فقد أخذ يرضع من ثديها ، بشغف عجيب ، وكل بدنه الصغير يرتجف بينما ذيله الصغير لا يكاد يتوقف عن الحركة ، يُبصْبِص به وهو يدفع برأسه خاصرة أمه – أحيانا – يستدرُّ اللبن منه ويستحلبه في حركة سريعة . أما محفوظ فقد جلس بعيداً عن الظبي الصغير وأمه ،

وأخذ يفكّر ، وهو يتذكر ، ويستعيد – في ذهنه – حوادث ذلك اليوم العجيب من أيام حياته في الوادي الأخضر ، وتلك المصادفة التي قادته إلى ذلك المكان ، وما قام به من تسلق الصخور .

مرّ كل ذلك في ذهن (محفوظ) كأنه شريط مصور حتى توقف عند أمر الكهف ؛ فلم يكن (محفوظ) قد شاهد من قبل كهفاً ، أو دخل في كهف ، أو ما يشبهه ؛ فحياته كلها كانت في الوادي الأخضر – انطلاقاً في الوديان والمراعي وسهول الوادي . . لم يلجْ قبل ذلك مكاناً ضيقاً كهذا . . وتذكر – شعوره حين دخل الكهف ، فأحب تلك المغامرة ودغدغ خياله ذلك الشعور ، وتمنى أن يعيد ما فعل ، مرة أخرى .

ولِمَ لا ؟ ! ! لم لا يعيد التجربة ، مرة أخرى ، وهو يعرفُ الطريق جيداً إلى هناك وليس ثمة ما يخافه ، أو يخشاه ؛ فقد مضى إلى هناك قبل ذلك وعاد سالماً .

وهبت الغزلان واقفة ، الواحدة بعد الأخرى ، فقد حان موعد الذهاب إلى المراعي ، بعد أن كفّت حدة حرارة الجوّ ، وأخذت الشمس تميل كثيراً عن وسط السماء ، وحينما انطلقت الغزلان نحو المراعي ، انطلق (محفوظ) يسبقها ، ويسير أمامها ، كما اعتاد أن يفعل في كل مرة ، منذ سنوات طويلة .

كان (محفوظ) يسير هذه المرة ، بطريقة تلقائية ، كما اعتاد أن يسير في المرات الكثيرة السابقة ، أما عقله ، وفكره ، فلم يكن في الطريق ، ولا في المرعى ، ولا في الغزلان التي تتبعه ، بل كان هناك ، عند الصخور ، في ذلك المكان الرائع البديع ، الذي زاره ذات مرة . كان يستعيد في خياله تلك اللحظات السعيدة ، التي

قضاها في تسلق الصخور ، يقتحم الكهف ، ويقف في ذلك المكان المرتفع ، يُطل منه على الوادي ، ويراه من زاوية جميلة ، مثيرة .

وحينما اصفرَّ قرص الشمس ، وأخذ يختفي وراء الأفق ، عادت الغزلان إلى حيث اعتادت أن ترقد كل ليلة ، عاد معها محفوظ كما اعتاد أن يعود في كل مساء .

قضى (محفوظ) تلك الليلة وهو يحلم أحلاماً عجيبة ، كان مسرحها جميعاً ذلك المكان الذي قادته إليه الصدفة ، ولم يستطع أن يواصل نومه حينما تذكّر الصخور ، وصعوده عليها ، والكهف ، ووحشته وظُلمته ؛ ونشِط ذهن (محفوظ) وتنبّه عقله ، وأخذ يفكر في ذلك الكهفَ المثير ، وأنْ لا بدَّ من العودة إليه ، واقتحامه .

كان (محفوظ) يفكر بعقل تملّكه حب المغامرة ، واقتحام المجهول ، . . . وطال تفكيره ، إلى أن سيطرت عليه فكرة العودة إلى هناك ، فقرر أن ينفّذها .

داخـل الـكهف

حينما استيقظت الغزلان ، عند فجر اليوم التالي ، كان (محفوظ) قد قطع نصف المسافة التي تفصل بين مكانها ، حيث اعتادت أن ترقد ، ويرقد هو معها كل ليلة ، وبين منطقة الصخور ، عند طرف الوادي .

كان (محفوظ) منطلقاً نحو الصخور ، وهو يحث خطاه ، بل كان يهرول حيناً ، ويجري أحياناً أخرى ، حتى بلغ المكان ، وكانت الشمس قد ارتفعت قليلا ، وغمرت الأرض بنورها .

ووقف (محفوظ) يتأمل الصخور ، لفترة قصيرة ، ثم أسرع يتسلقها بخفة ، حتى بلغ موضع الكهف ، فوقف عند مدخله متردداً في اقتحامه ثم ما لبث أن دخل إليه مسرعاً ، وخطا في داخله عدة خطوات ، حتى لم يعد يسمع أصوات الطيور التي كانت تغرد ، وهي على الأشجار ، خارج الكهف ، ولا صوت الريح ، وكأنما انقطع عن العالم .

ومضى يمشي داخل الكهف ، وكان كلما تقدم أحس بالظلام يزداد من حوله ، ويتكشف ؛ فالشعاع الذي يقع داخل الكهف ، كان يأتي من خلال مدخله فقط . ولكن (محفوظ) أخذ في التقدم ، وازداد الظلام حوله سواداً ، حتى أصبح ــ آخر الأمر ــ لا يرى شيئاً مما حوله ، من جــدران الكهف ، وصخوره الناتئة .

وفكر (محفوظ) في العودة من حيث أتى ، وكان قد مضى عليه وقت طويل ، وهو يتوغل داخل هذا الكهف العميق ، الذي خُيِّل إليه ألاّ نهاية له .

كان كهفاً عميقاً حقاً ، ظل (محفوظ) يمشي في داخله ساعات وساعات ، وقد أخذته نشوة المغامرة ، وتملكته الرغبة في اكتشاف المجهول ، وكانت تدور بعقله ، في تلك اللحظات ، حقيقة واحدة ، هي أنه لا بد أن هذا الكهف يقود إلى مكان آخر ، ربما واد مثل الوادي الذي نشأ به ، ولكن إلى متى يظل يمشي في هذا الظلام الدامس .

وفجأة ، شاهد (محفوظ) شيئاً لفت نظره ، وأعاد الأمل إلى نفسه في ذات الوقت ؛ فقد وقعت عيناه على نقطة بيضاء ، لم يتبين حقيقتها ، لبعدها كثيراً عن المكان الذي كان يقف عنده .

وغمر محفوظاً الحماس ، ودب في جسده النشاط والحيوية ، فتقدم من غير تردد صوب تلك النقطة البيضاء .

غير أن تقدير (محفوظ) لم يكن صحيحاً للمسافة التي تفصل بينه ، وبين النقطة البيضاء ، إذ أنه ظل يمشي وقتاً طويلاً داخل الكهف ، في ذلك الظلام الشديد ، يتعثر في حجارته أحياناً ، ويصطدم بجدرانه أحياناً أخرى ، وما زالت تلك النقطة بعيدة عنه ، لم يبلغها ، غير أنه لاحظ أنها تكبر كلما اقترب منها ، ويزداد ضوءها وضوحاً ، وهذا ما شجعه على المضي إلى الأمام ، حتى أصبحت المسافة التي تفصل بينه وبين تلك النقطة قصيرة ، عند ذلك وقف وهو حائر مضطرب ، فقد تبين له أن تلك البقعة ، ما هي إلا فتحة بين الصخور . . .

إذن فهناك مجال آخر لمغامراته ، لأن تلك الفتحة قد تؤدي به إلى مكان آخر .

اقترب (محفوظ) من الفتحة ، في تردد ، وأطل منها ، ولم يصدق عينيه في أول الأمر ، فقد كانت هناك مساحة كبيرة من الماء تنبسط أمام بصره تتحرك فيها الأمواج صاخبة ثائرة تتلاطم ، وكأنها تتصارع ، يعلوها الزَّبد الأبيض ، ما هذا يا تُرى ؟ ! وحدَّ محفوظ بصره فلم يرَ غير الماء تعلوه الأمواج ، التي كانت تحركها — في تلك الساعة — ريحٌ عاصفة عاتية .

ثم حسرَ محفوظ بصره فإذا ، في نهاية ذلك الماء أرضٌ يابسة رملية . وذُهل محفوظ فهو — إلى ذلك اليوم — لم يكن يعلم أنَّ هناك عالماً آخر غير عالمه في الوادي الأخضر ، وليس هناك أرضٌ غير أرضه ، أو ماءٌ غير ماء نهره الهادئ الجريان ، القليل الصَّخب ، كان (محفوظ) يعتقد — إلى ذلك اليوم — أن نهاية العالم هي تلك الصخور ، فإذا وصل إليها ، بلغ نهاية وإذا به حين بلغها ، وصل إلى أعتاب عالم جديد من الماء .

كانت الفتحة بين الصُّخور ، ضيقة ، لا تكفي إلاَّ للنظر من خلالها ، ولا تسمح إلا بمرور قبضة يده الصغيرة فقط ، وكانت الصخور الضخمة الصلبة تحيط بها ، وتتراكم حولها ، وحاول محفوظ أن يدفع بعضها ، لينفذ من خلالها ، يستكشف ذلك العالم الجديد ، فأخذ يدفع الصخور بساعديه الضعيفين ، لكنَّ الصخور لم تتحرك ، فقد كانت راسية ثابتة ، متماسكة ، كأنها جدار متين من حديد .

يئس (محفوظ) — أخيراً — من تحريك الصُّخور ، وتوسيع

الفتحة ، واكتفى بأن يطالع من خلالها ، إلى ذلك العالم الذي يشاهده لأول مرة ، والذي لم يكن يعلم عن وجوده – قبل ذلك – شيئاً .

وطالت وقفة (محفوظ) حتّى تعبت قدماه من طول الوقوف ، وكان قد ملَّ ما رأى من رتابة منظر الماء والأمواج التي تعلو سطحه ، وذلك الخط الرَّمليّ عند حافة الماء ، وقرر العودة من حيث أتى ، والرجوع إلى مرابعه ، في الوادي الأخضر .

وعاد (محفوظ) يعبرُ الكهف المظلم حتّى وصل إلى مدخله ، ثم خرج إلى أعلى الصخور ، ووصلت إلى أنفه – عند ذلك – رائحة النباتات ، وأريجُ الزَّهر ينبعث من الوادي الأخضر ، يحملهما إليه النسيم الرقيق ، فكاد ينسى الدنيا الجديدة ، التي كان يُطل عليها منذ لحظات ، وينسى الكهف وظلامه ، والبحر وأمواجه . وشدَّه شوقٌ إلى أرض الوادي ، فسارع بالنزول من على الصخور ، وهو يثب وثباً ، يتعجل تلك اللحظة التي تطأ فيها قدماه الأرض المعشوشبة ، ويضمه فيها الوادي الأخضر ؛ وطنه الذي احتضنه ، وكان له السكن ، والأهل ، والأمَّ والأبَ ، ترعرع بين أشجاره وأنهاره ، ونشأ بين غزْلانه ، وقضى ما يقرب من عشر سنوات بين ربوعه ، منذُ أن وعى عقله المدركات ، وتفتحت عيناه على الحياة ، وهو في الثانية من عمره .

حينما وصل محفوظ إلى أرض الوادي الأخضر مضى من فوْره إلى المراعي حيث ترعى مجموعة الغزلان ، وما أن شاهدها حتّى أحسَّ بالأنس وبالطمأنينة تغمرُ نفسه ، وبالسعادة تشمله ،

وتمنى لو يجمعها جميعاً في مكان واحد ، ويجلس بينها ، ليُطفيء ما يحسه من شوق نحوها وحب .

كانت الغزلان ترعى متفرقة ، فوقف (محفوظ) ينظر إليها ، ويتأملها — هُنيهةً — ثم أسرع نحوها يحمل صغارها بين ذراعيه ، ويحتضنها في شوق وحنان .

وقضى (محفوظ) سحابة ذلك اليوم يجوب المراعي مع الغزلان ، وقد انصرف ذهنه عن كلّ ما شاهده في ذلك الصباح حتى إذا ما حل المساء ، ولجأ سرب الغزلان إلى حيث اعتاد أن يلجأ للمبيت ، لجأ معه (محفوظ) إلى هناك ، ونام نوماً عميقاً لم يستيقظ منه إلا على حرارة الشمس ، وكانت الغزلان قد غدت إلى المراعي ، فلحِق بها ، وأخذ يبحث معها عن طعامه ، كما اعتادَ .

مضت عدة أيام لم يشغلَ فيها أمرُ الصُّخور ولا الكهف ولا تلك الفتحة بال (محفوظ) ، فقد نسيَ هذا الأمرَ جميعَهُ أو كادَ .

ولكن بعد أربعة أيام عاودته الأفكار ، وسيطرت عليه الرغبة في العودة إلى هناك — فعادَ — ذات يوم مرة أخرى وأطلّ من الفتحة على البحر وأمواجه وأصبح من عادته بعد ذلك أن يذهبَ إلى هناك مرةً كل أربعة أيام أو خمسة ؛ يهبُّ عند الفجر وقطيعُ الغزلان ما يزال نائماً ، فيمضي مسرعاً ، يتسلق الصخور بخفة ثم يلِج الكهفِ ، ويشق طريقه في ظلامه حتى يصل إلى تلك الفتحة ، فيطلُّ منها على البحر ؛ ذلك العالم الجديد الذي اكتشفه بمحض الصُّدفة .

وتطول وقفة محفوظ هناك وإطلالته ، ثم يعود بعد ذلك ، إلى جماعة الغزلان ؛ أهله ، وعشيرته ، فيقضي بينها بقيـــة الوقت .

ومضت الشهور والأعوام ، و (محفوظ) حريصٌ على الذّهاب إلى ذلك المكان ، عند نهاية الكهف كحرصه على صداقة الغزلان والعيش بينها ؛ فهو لا يعرف غيرها أهلاً ولا عشيرةً .

غير أن ذَهابه إلى ذلك المكان القصيّ من الوادي ، وما يصادفه في الطريق إليه من أشياء جديدة عليه ، غريبة حديثة على إدراكه ، فوق ما جدّ عليه بعد اكتشافه ذلك الكهف العميق وتلك الثغرة التي مكّنته من رؤية عالم غير الوادي الأخضر ، كلُّ هذا وسّع مداركه ، وشحذ ذهنه ، للتفكر ، والتبصر في كل ما حوله وجعله يتأمل ويفكّر .

لم تعد الشمس بالنسبة له هي شيءٌ يوقظه عند الصباح بحرارته فحسب ، ليخرج للمرعى مع الغزلان ، ويعود حينما يصْفرُّ قرصها ، وتدنو من قمة الجبل ، بل أخذ يفكر في دورانها ، فهي تخرج دوماً – من هذه الجهة ، من خلف تلك الصُّخور ، وتظلُّ ماضية إلى أنْ تختفي في الجهة المقابلة ، بعد وقت يتساوى كل يومٍ ؛ لم تسرع يوماً في جريها ، ولم تبطىء ، لم تخرج يوماً من حيثّ تغيبُ ، ولا غابت حيث تُشرقُ .

إنها تمشي وتجري ، والنبات لا يمشي ولا يجري ، والجبل على الرغم من أنه قويٌ رهيب فهو لا يستطيع أن يجري أو يتحرك . من أين تأتي هذه الشمس ؟ وأين تختفي ؟ إنها لم تغب يوماً عن هذا الوادي لعلها نُطلُّ عليه ، وتُشرفُ ، وتُراقبُ ، ولكنها

لم تنزل يوماً على الأرض على الرغم من ذلك – لتشرب الماء أو تأكلَ العُشب والفاكهة ؛ لا بدَّ أنها قوية جبارة أقوى من كل تلك الشموس الصغيرة التي تظهر في غيبتها حينما تختفي في الليل ، وذلك القمر الذي يظهر بالليل أحياناً فتفرح به الغزلان ، وتمرح ، وتلهو ، يكسبُها النشاط ويكسبُني ، ويضفي على النهر والشجر ، وكل ما حولي جمالاً وبهاءً .

ومضت ثلاثة أعوام على (محفوظ) بعد ذلك ، وبلغ عمرهُ الخامسة عشرة ، وأخذ ذهنه ، يتّقد ويتفتّح ، ودبتْ في جسده حياةٌ جديدة غريبة ، وبدأ يحسُّ تدفُّق الدم حارّاً في عروقه ، وقويتْ بنيته ، واشتدت عضلاته ، وأخذ حماسه للهو مع الغزلان وصغارها يفترُ ، وزهِد في المغامرات ، والصعود إلى المرتفعات وتسلق الأشجار ، والقفز منها ، والجري ، والقفز ، وصار يقضي معظم الوقت في التأمل والتفكر في كل أمر يخطر على ذهنه ، ومراقبة كل ما حوله من حركة الأشياء وسكونها ، وكان أكثر ما يشغله ، ويحيِّر عقله ، ومعظم ما يجول في ذهنه من تساؤلات عن الشمس . . .

من أين تأتي . . . ؟

هل تأتي من وراء ذلك الكهف المظلم الغامض . . ؟

أمْ ، هل تخرج من بين تلك الأمواج العاتية ؟

وإلى أين تعود ؟

هل تعود إلى ذلك الكهف العميق الغَوْر ؟

أم إلى تلك المياه الوفيرة . . تختبيء فيها . ؟ لا . . إن طبيعةَ

الشمس الحرارة . . فهي تُصلي هذا الوادي بنيرانها . . . في حين أنَّ طبيعة الماء البرودة ، وقد لمست هذا في ماء النهر . . .

إذنْ ، فليس الماء مصدرها ، ولا منتهاها . . ولا مرقدَها ...

أخذ (محفوظ) يفكر ، إن لم يكن هذا هو ذاك . . ؟ أو لم يكن ذاك هو هذا . . ؟ فمن أين تأتي الشمس كلَّ يوم . . ؟ وإلى أين تذهب . . ؟ وأين تختفي . . ؟ وماذا تفعل مـــدةَ اختفائها . . ؟ ! !

وأخذ (محفوظ) يفكّـر ويخمّـنُ :

لعلها تختفي . . حين تختفي ، في جوف الأرض ، فتطرد من باطنِ الأرض هذا النبات ، الذي يبرز كل يوم إلى سطحها ، ويطولُ ، وتلك الحشائش التي ما إن تأكلها الغزلان ، وتأتي عليها ، حتى تظهر من باطن الأرض حشائش غيرها . .

من يدفعها من باطن الأرض إلى سطحها ؟ لا بد أنها تلك الشمس هي التي تفعل ذلك في أوقات اختفائها بالليل ، حينما نأوي إلى ذلك المكان ، ونستغرق في الرّقاد ، ويُغطي الوادي الظلام ، عند ذلك تبدأ هي في عملها ، فما نلبث عند الصباح أن نجد الحشائش قد نمت ، وخرجت إلى ظاهر الأرض ،والثمار قد وُضِعت على الشجر ، فتأكل الغزلان ، وآكل أنا معها .

وهكذا أخذ (محفوظ) يقضي معظم وقته يفكر ، ويتأمل ، بل يكدُّ ذهنه ، ليجد العلاقة بين كل أمرٍ ومسبباته ، وكل فعلٍ وفاعلهِ .

الصـاعقة

قضى (محفوظ) ، ذات ليلة – بعد أن نامت الغزلان – شطرًا طويلا من الليل ، وهو يفكر – كعادته – ويتأمل ، كان يستلقي على ظهره ، فوق العشب ، يطالع صفحة السماء ، ويتأملها ، وقد اختفت نجومها في تلك الليـــلة خلف السُّحب التي كانت تموج موجاً ، لا تستقر على حال ، ولا تبقى في موضع واحد ، لا تهدأ ، ولا يَقَرُّ لها قرار ، تحملها الرياح القوية ، تجري بها من مكان إلى مكان ، وكلّما مضى الوقت تراكمت تلك السُّحب فوق بعضها ، وتكاثفت ، حتّى غدت السماءُ مظلمة ، سوداء كالحة .

وهبت ريح باردة ، هادئة ، ندية ، ارتاحت لها نفس (محفوظ) وانتشتْ ، بينما استيقظت الغزلان فَزِعةً ، وأخذتْ تجري ، وهي مضطربة ، وجِلةٌ ، إلى داخل الأحراش ، تحتمي بأكمةٍ غزيرة النبات .

وانتصب محفوظ واقفاً ، من غيرِ وعيٍ منه ، وهمَّ بأن يتبع الغزلان ، كما اعتاد أن يفعل في كلِّ مرةٍ ، منذُ أن نشأ طفلاً صغيرًا بينها ، ولكنه في هذه المرة عادَ وقد غلب عايه فكره ، فجلس ، بل استلقى على العشب كما كان ، وقرَّر أن يرقب ما يحدث في السماء .

ولقد كان (محفوظ) ، في أيامه الماضية ، وسنِّي طفولته الأولى ، لا يعي كثيراً مما يحدث حوله ، بل كان يتبع الغزلان ،

التي تقودها فطرتها في كل الأحوال ، فحين كانت تشمّ في الرياح قرب هطول المطر ، وتسرع بالاختباء كان يفعل مثلها لتلك الرياح ، التي يرسلها الله تبارك وتعالى ، قبل هطول المطر ، بشرى لأهل الأرض ، برحمته القريبة ، وبالخير الآتي ، الذي يحمله المطر للأرض ، وأهلها ، :

« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ »

ومن رحمته ، أن تلك الرياح تفهمها ضعاف الحيوان ، وصغاره بفطرتها ، فتلجأ إلى أوكارها وجحورها ، ومخابئها ، وتحسها الطيور فتختبيء بين الأغصان المتينة ، وفي الأكنان ، وتلك فطرة الله ، أودعها الحيوان الأعجم ، الذي لا عقل له ، ولا إدراك ، يدرك به ظواهر الكون ، أو يفهمها ، وذلك حتى لا يهلكَ ؛ رحمة من الله اللطيف الخبير ، الرّحيم بمخلوقاته .

بقيَ (محفوظ) في موضعه ذاك ، يرقب السماء ، ويحاول جهده فهم ما يحدث ، وإدراك ما يدور فيها ؛ كيف تتحرك تلك الكتل الهائلة من السّحاب ، وهي في ضخامة الجبال ؟ وكيف تمور ، وتموج في بعضها في هذا العلوّ ، ولا تسقط ؟ وكيف . . . وكيف . . . ؟

وأخذ (محفوظ) يفكر ، وبينما هو كذلك ، إذ تغيّر الحال فجأة ، فأضاءت السماءُ ، بنور قوي وهّاج ، كأنما انشقت عنه تلك السُّحب ، وعلى ضوئها الخاطف ، رأى محفوظ كلُّ ما حوله ، وكأنما هو في منتصف النّهار ، فذُهِل (محفوظ) ، وقال في نفسه . . « لعلها الشمس ؛ خالفت عادتها ، وظهرت اللحظة ، في هذا الوقت من الليل ، حتى شهد ما يحدثُ في جوّ السماء ، من هرج ، ومرج .

كان ذلك الضوء ، الذي رآه (محفوظ) ، هو ضوء البرق ، كان قوياً خاطفاً ، لم يُدركْهُ عقلُ (محفوظ) ولا فهمه ، فأخذ به ، ودُهِش ، وقبل أن يفيق من دهشته — دوّت السماء برعد ، أصمَّ دويُّه أذني (محفوظ) ، وكاد يُغشى عليه ، فقامَ من موضعه ذاك ، وهبَّ مُسرعاً يتخبط في مشيه ، يبحث عن مخبأ ، يأوى إليه ، يختبيءُ فيه . وكانت الأمطار قد أخذت تهطل غزيرّة وفيرة ، بينما كانت السماء تبرق ، وترعدُ وتدوّي .

مضى (محفوظ) يبحث عن مخبأ الغزلان ، وهو يُسرع متعثراً في مشيه . . . كلما أضاء له البرق مشى في ضوئه ، فإذا أظلم ، وقف خائفاً مضطرباً ، إلى أن بلغ المخبأ .

اختبأ محفوظ بين الغزلان ، وهو خائفٌ وجلٌ مضطربٌ ، ولكن ما لبث أن عاودته الرغبة في استجلاء ما يحدث في سماء واديه الأخضر ، وما يدور . . .

وخطر بذهنه — في تلك اللحظة — ما شاهده من مياه وافرة في ذلك المكان ، منْ خلال ثغرة جدار الكهف ؛ تذكَّرَها ، وحاول ذِهنُه المُتعب المكدود ، أن يربط بين تلك المياه الوفيرة ، التي رآها هناك ، وهذي المياه الغزيرة ، التي تهطل من أعلى السماء ، — وقالَ : — لعلّها هي ، بل لا بد أنها هي تلك المياه ، قد اخترقت الجوَّ ؛ لا بد أنها هي من غير شك ، فقد كانت تعلو أمواجاً ، وترغى ، وتزيد ، . . هي . . هي . . ولكن كيف هذا ؟ كيف يحدث هذا ؟ ثم عاد (محفوظ) فقال في نفسه : هذا جائز . . نعم . . أن يحدث هذا جائز . . . ويحدث غير هذا ، فأنا لا أكاد أفهمُ شيئاً مما يدور حولي من أُمور ؛ . . يظلم

الوادي ، ويضيء . . . تنبت أشجارٌ ، وتخضرُ ، وتصفرُ أخرى ، وتذبلُ . . وتسقط أوراقها — وتسقط هي أحياناً — يخرجُ غزالٌ صغيرٌ، من غزال آخر كبير . . تظهر الشمس أحياناً بين السحب ، وتذوّى ، تنام غزالّةٌ ، ثم لا تقوم ، وأحياناً تقوم ، وفي بعض الأحيان لا تقوم ، حتى تتفتت في موضعها ، . . . إنني لا أكاد أفهم شيئاً . . . الماء هناك ، خلف الكهف كثير وفير ، وها هو ذا يهطل الآن هنا . . .

وأطلّ محفوظ برأسه ، من بين الشجيرات الكثيفة المتشابكة ثم رفع بصره ، ينظر إلى السماء ، وكان السحاب ما يزال متراكماً ، والبرق يبرق وقتاً بعد وقت ، وأصواتُ الرُّعود تُزمجر من حين لحين .

وفجأة بهر عيني (محفوظ) ضوءٌ قويٌّ أخّاذٌ من بين السحب ، فشقّ الفضاء شقاً ، وتوهّج فأضاء كل شيء ، وأنار كل جنبات الوادي ، ثم أعقبه صوتٌ حادٌّ ، تجاوبت معه السُّحب وردّدته الجبال ، فصُعق (محفوظ) وترنّح ، فارتطم رأسه بساق شجرة غليظ ، وسقط على الأرض ، وخُيِّل إليه — وهو يسقط — أن شعلة من نار قد سقطت ، في جانب من الوادي ، فاشتعل ذلك الجانب بالنيران .

مضت — بعد ذلك — عدة لحظات ، على (محفوظ) ، وهو ملقى على الأرض ، فاقد الرُّشد ، فلما أفاق ، أخذ ينظر إلى حيث حسبَ أن الشعلة سقطت ، فإذا نارٌ عالية اللهب ، وحريق رهيب ، ونارٌ تأكل الشجر الأخضر واليابس .

ذُهل (محفوظ) ، وأخذ ينظر إلى ألسنة اللهب العالية ،

ويقول – في نفسه – لقد سقطت على الأرض ، سقطت الشمسُ ، سقطت تلك التي تظهر كل يوم ، فتضيء الأرض بنورها ، وترسل حرارتها عليها ، لقد سقطت على الشجر ، فأحرقته ، إذنْ . . . فلن تظهر غداً مرة أخرى . . . كيف ستخرج غداً إلى المراعي ؟ وكيف نجد ثمارنا ، إذا كان هذا الليل ، وهذا الظلام سيستمر سرمداً ؟

وتعب عقل (محفوظ) المكدود – من التفكير ، فرقدَ حيث كان ، ونام نوماً عميقاً ، حتى الصباح ، حينما أيقظه ضوء النهار ، وكانت الشمس ما تزال تحتجب خلف الغيوم .

عندئذ قام (محفوظ) من مكانه ، واتجه صوب المكان الذي ظن أنه توهم أن النار قد اشتعلت فيه ليلة البارحة ، وكان يظن أن الذي رآه من أمر النار إنما هو حُلمٌ وحسب .

ولكن ما أن اقترب من المكان حتى هاله أن وجد الشجر هناك قد استحال إلى رماد ، بعد أن قضت عليه النار ، فأحرقتْه جميعه .

ووقف (محفوظ) ينظر إلى آثار الدمار ، الذي أحدثته النيران ، فأخذته رعدة خوف من الشمس ، ورهبة ، وتأكدت له قوتها ، وجبروتها ، فلقد صعقت الشجر الأخضر ، فأحالته رماداً ، فكيف لو سقطت عليه هو . . فأهلكته ، ودمرته .

وخاف (محفوظ) ، ورفع بصره إلى السماء ، فإذا به يرى الشمس قد ظهرت من بين الغَمامَ .

لم يصدّق (محفوظ) عينيه حين رأى الشمس ، فاضطرب عقله ، وذُهل ، كيف هذا . . ؟ من أين جاءت ؟ . . إنها هناك ،

في موضعها من السماء ، على الرغم من أنني رأيتها بعينيّ تسقط على الأرض ليلة البارحة ، فتحرق الشجر . . . إذن ، فهي تملك أن تعيد لنفسها الحياة .

عند ذلك تمكنٍ من نفس (محفوظ) الخوف من الشمس ، وتغلغلت في قلبه الرّهبة ، وتملكه الوجلُ منها ، راعتقد أنها هي التي تملك الحياة والموت ، وأنها خالدة ، لا تموت ؛ هي التي تخلق النبات بالليل ونحن نيام فتحييه وتخرجه لنا ، وهي التي تسقط عليه فتميته وتفنيه كما فعلت بالأمس ، وتملّك قلب (محفوظ) الخوف من الشمس ، وأصبح — بعد ذلك — يخشاها ، وتغشي الرهبة قلبه كلما وقعت عليها عيناه ، لا سيما عند شروقها ، وغروبها حين تبدو له كبيرة ضخمة ، وقريبة ، سريعة الجريان ، فكان يجلس في هذين الوقتين يستقبلها في تبتّل وخشوع ، ويرجو منها — في سرّه — ألا تؤذيه ، أو تحرقه ، كما أحرقت الشجر ، ويطلب منها أن تنبت النبات ، والثمر والحشائش ، وألا تغضب منه ، فتزمجر في السماء ، وترسل نفسها حمماً على الوادي .

وكان (محفوظ) ، كلما استيقظ في الليل ، نظر إلى القمر في خوف وحذر — أيضاً — فلا بدّ أنّه هو — الآخر يملك تلك القوة ، ولو أنها أقل من قوة الشمس وجبروتها .

الزائــر

ظل (محفوظ) واقفاً في مكانه ، ينظر إلى الدمار الذي أحدثه وقوع الصاعقة على الأشجار ، وكان يعتقد أنه من فعل الشمس ؛ فهاله ذلك .

وتذكر – في تلك اللحظة – الكهف ، وأراد أن يذهب إليه ، حتى يتحقق من أمر خطر بذهنه بالأمس ، أثناء هطول المطر ، هو أمر الماء الذي شاهده من خلال الثغرة في الكهف ، هل هو الماء الذي سقط على الوادي مطراً ليلة الأمس ؟

وسيطرت على (محفوظ) رغبة جامحة في الذهاب إلى الكهف ، وقويت الرغبة عنده في التأكد من أمر الماء هناك . . وازداد السؤال إلحاحاً على عقله :

هل ما زال ذلك الماء باقياً في مكانه أم أنه تحول إلى ذلك المطر ، الذي هطل ، فغمر الوادي ليلة البارحة ؟

لم يتردد (محفوظ) ، أو يبطيء ، أو يتأخر ، بل مضى من فوره إلى طرف الوادي مسرعاً ، فصعد الصخور ، في عجل ، واخترق الكهف حتى بلغ الفتحة التي في نهايته .

أطل (محفوظ) من الفتحة ، فإذا الماء هاديء ساكن في مكانه ، غير أن هناك شيئاً على سطحه ، لم يتبينه (محفوظ) – في باديء الأمر ، فأمعن فيه النظر ، ولكنه لم يستطع معرفته

بالتحديد ، ففرك عينيه ، ودقق فيه النظر مرة أخرى ، ولكن لم تتضح له معرفته ، غير أنه بدا له كقطع ضخمة من الخشب ، تطفو على سطح الماء ، قرب الساحل ، ترى من أين جاءت ؟ كانت على الساحل الرملي ، ثم حركتها الريح ، فسقطت في الماء .

وعاد (محفوظ) بنظره إلى الساحل ، ليرى إن كانت ثمة قطع خشبية أخرى أم لا ، فوقعت عيناه على شيء يرقد هناك على رمال الساحل ؛ حسبه (محفوظ) في أول الأمر كتلة خشبية ، من تلك التي شاهدها على سطح الماء ، ولكن شكلها وهيئتها لم تكن تدل على ذلك . . ترى ما هذا الشيء . ؟

وأحس (محفوظ) كأن الأرض تهتز تحت قدميه ، حينما تبينت له حقيقة ما يرى ، إنه مخلوق ، قريب الشبه منه . . له قدمان مثل قدميه ، ويدان كيديه ، ورأس كرأسه ، إنه لا يشبه الغزلان ، ولا الطيور ، لا بد أنه من فصيلة أخرى ، قريبة الشبه منه ، ولولا أن الرجل المسجى على الرمال كان يرتدي بعض الملابس الملونة لتأكد (محفوظ) من أنه يشبهه تماماً في تكوينه ، وأنه من فصيلته ذاتها . . ، ولكن الملابس التي كان يرتديها الرجل — وهي غريبة على (محفوظ) — ، ظللته ، وجعلته يعتقد أن هذا المخلوق قريب الشبه منه وحسب .

بعد أن أفاق (محفوظ) من دهشته لرؤية ذلك الرجل ، وفي ذلك المكان ، وكانت تلك أول مرة يرى فيها مخلوقاً غير الغزلان والطيور ، بل مخلوقاً يُشبهه كثيراً في تكوينه الجسماني بعد أن أفاق (محفوظ) من وقع المفاجأة عليه ، أخذ يُمعن النظر في كل جزء من أجزاء جسد الرجل ، وهو

يراقبه من خلف الفتحة ، فلاحظ أن هناك جُرحاً في رأسه ، يسيل منه الدم .

حَزِنَ (محفوظ) لهذا المنظر ، وتحركت في قلبه عاطفة الشفقة ، والخير ، وسيطرت على نفسه ، دوافع الشهامة والنخوة ، والنجدة ، وأحس بعاطفة قوية نحو ذلك المخلوق الملقى على الأرض . وقرر أن يصل إليه بأية وسيلة ، وأن يفعل شيئاً في سبيل إنقاذه ، ولكن كيف يصل إليه وبينهما ذلك الحاجز من الصخر ؟

أخذ (محفوظ) يدفع بيديه الصخور ، التي تُحيطُ بالفتحة ، ولم يكن قد قام بهذه المحاولة من قبل ، في مرته الأولى قبل ثلاث سنوات ، حين كان لا يزال في الثانية عشرة ، أما الآن — وقد اكتسب جسمه قوة الشباب ، وعنفوانه ، وقويت عضلاته ، وامتلأت نفسه بالحماس ، والتحفز ، والإقدام — فقد أحس في داخله ، برغبة قوية تدفعه لتحطيم تلك الصخور ، حول الفتحة ، حتى يعبر من خلالها ليصل إلى ذلك المخلوق الجريح لمساعدته ، وإنقاذه من آلامه ، فلطالما ساعد غزالا جريحاً من قطيعه ، وطالما استعان بمهارة يديه في مداواة الجرحى من أفراد القطيع ، وجبر كسور أرجلهم .

وتناول (محفوظ) صخرة كبيرة ، وجدها قريباً منه وأخذ يضرب بها الصخور حول الفتحة ، حتى يفتتها ، ويوهن تماسكها.

وبرقت عينا (محفوظ) من الفرحة ، حتى سقطت من أثر ضرباته — القوية الهائلة — ، كتلة من الصخر ، كانت ترتكز عليها كتل أُخرى ، مختلفة الأحجام من الصخور .

ولكن فرحة (محفوظ) لم تدم طويلا إذ حدث شبه انهيار صخري في المكان ؛ فالصخور كانت يرتكز بعضها على البعض الآخر ، وتسبب تساقط تلك الصخور وتراكُمُها في قفل الفتحة ، حتّى لم يعد (محفوظ) يرى من خلالها ما كان يرى من قبل .

وأظلم الكهف ، على إثر ذلك ظلاماً شديداً ، ولكن عزيمة (محفوظ) لم تَهن ، وحماسه لم يفتر ، بل ازداد عزماً وحماساً ، وأخذ يدفع الصخور بيديه ، ويبعدها بعضها عن بعض ، بكل قوة وعنف ، حتّى تكشفت عن فتحة كبيرة ، أخذ محفوظ يُبعدُ عنها الصخور ، صخرةً إثر صخرة ، حتّى ازداد اتساع الفتحة ، وأصبح بمقدوره العبور من خلالها إلى خارج الكهف ، فعبر .

حينما خطا (محفوظ) عدة خطوات خارج الكهف ، وقف وقد نسي كل شيء عن الرجل الجريح ، وعن إنقاذه ، نسي كذلك آلام جسده ، وإرهاق بدنه ، والجراح المتعددة التي أصابت يديه ، وأدمت أصابعه ، عندما كان يحاول إبعاد الصخور عن الفتحة ، نسي كل هذا ، إذ بهر عقله ذلك الفضاء اللانهائي فوق مياه البحر ، وتلك المساحة الشاسعة التي تغمرها المياه ، وامتد بصره لأول مرة نحو الأفق ، فرأى كيف تلامس السماء الأرض ، وكيف أن السماء ليست سطحاً ممدوداً ، كما كان يراها من داخل الوادي ، بل هي قبةٌ زرقاء ، تنزل حتّى تلامس سطح الأرض أو الماء ، إذن ، فهنا عالمٌ أرحب من الوادي الأخضر ، هنا السماء بلا حدود ، والماء بلا حدود .

ومد (محفوظ) المأخوذ ، المنبهر بصره ، وأرسله مع الشريط الساحلي ، هنا — أيضاً — أرضٌ بلا حدودٍ ، ونظر (محفوظ)

إلى يمينه ، ثم عاد فالتفت إلى يساره ليشهد امتداد الساحل الممتد إلى ما لا نهاية — في نظره — ثم التفت إلى الجهة الأخرى ، فوقع بصره على الرجل ، وعندها فقط تنبه ، وعاد إلى ذهنه — ساعتئذ — أمرُ الرجل الذي فعل من أجله ، كل ما فعل . وثارت في نفسه الشهامة ، فاندفع ، بعاطفة قوية نحو الرجل ، حتى وقف بالقرب منه ، وأخذ يتأمل شكله .

إنه يشبهُه — تماماً — إذ ليس ، في جسمه ، شعرٌ مثل ما للغزلان ، وليس له عنقٌ طويلةٌ ، ولا أرجلٌ — رفيعةٌ تنتهي بأظلاف ، لا . . ولا . . ولا وأخذ محفوظ يُعددُ — في ذهنه — الفوارق بين هذا المخلوق ، وبين الغزلان ، ثم يُقارن بين الرجل وبين تكوينه هو ، وإذا به يقطع — في آخر الأمر — بأن هذا المخلوق إنما هو من فصيلته هو ، ومن جنسه ، وهنا استغرق (محفوظ) في التفكير في أمرٍ جديد ما كان يعلمه من قبل ، وهو وجود مخلوق آخر مماثل له في الشكل ، فهو منذ أن وعى الحياة في الوادي الأخضر الذي كان يعتقد أنه العالم كله ، ولا عالم سواه ، منذ أن وعى عقلُه وأخذ يجوب أرجاء عالمه ذاك ، لم يصادف مخلوقاً يشبهه ، لا في الماشيات ، ولا في الطائرات ، ولا في الزاحفات .

ومد (محفوظ) يده ، بحذر ، وتوجس ، وأخذ يلمس بها ملابس الرجل ، ويقلبها بين أصابعه ، حتى تأكد من أنها ليست أصلا من تكوين هذا المخلوق ، ولا جزءاً من جسمه .

كان الرجل ساعتئذ — فاقد الوعي ، ولعله أُصيب في البحر ، أثناء هبوب العاصفة ، في الليلة السابقة ، فتحطم مركبه على الساحل ، وقذفت به الأمواج إلى الرمال ، وهو على تلك

الحال من الإغماء ، أو ربما أُصيب بتلك الإصابة ، بعد أن تحطم مركبه ، فصارع الأمواج حتّى بلغ الساحل ، وألقى بنفسه في هذا الموضع ، ثُم أُصيب بالإغماء من فرط ما نزف جرحه من دم .

أما (محفوظ) ، المحدود الإدراك ، فلم تخطر بذهنه أيٌّ من هذه العلاتِ ، والاحتمالاتِ ، بل اعتقد — في باديء الأمر — أن الرجل نائمٌ ، فأخذ في إيقاظه برفقٍ ، وهو متوجسٌ وجِلٌ ، فلما لم يستيقظ ، قدر أنه متألم يعاني من ذلك الجرح ، ألماً جعله في حالةٍ مشابهة لحالة الموت .

عند ذلك أخذ في إزالة الدم من حول الجرح الغائر في رأس الشجر .

وأحس (محفوظ) بالعطش الشديد ، فدفعته العادة إلى أن يتقدم إلى جهة الماء ، وأخذته رهبةٌ وهو يقف على الساحلِ ، ليس أمامه غير الماء تصطخب أمواجه ، وانتابه شعورٌ غريبٌ ، حين لامست مياه البحر قدميه لمساً خفيفاً ، ثُم انحسرت عنهما ، فلم يُحرك قدميه ، بل جلس عند طرفِ البحر كالمأخوذ ، وغمس يديه في الماء ، وأخذ منه بكفيه ، ليشرب ، كما اعتاد أن يفعل — في كل مرةٍ ، عند النهر — حينما يرغب في الشرب ، ولكن ما إن وصل ذلك الماء المالح إلى لسانه ، فتذوقه ، حتّى هب كالملدوغ ، وهو يقذف بالماء خارج فمه ، وخطا خُطوات سريعة للوراء ، ثُم ترك مكانه على الساحل ، وقد أحس بُغضاً لذلك البحر ولمائه ذي الطعم المالحِ ، ولم يكن (محفوظ) يعرفُ طعم الملح قبل ذلك ، ولا تذوّقه .

وقف (محفوظ) بعيداً ، يتأمل ذلك الماء المُرّ المذاق ، وأخذ – وقد غلب عليه العطش – يتذكر ماء النهر ، في الوادي الأخضر ، ذلك الماء العذب ، الصافي النمير ، . . وهزته ذكرى الوادي الأخضر ، وتمنى لو كان – في تلك الساعة – هناك ، بين أشجاره وأنهاره والغزلان .

ولم يفُقْ (محفوظ) من تأملاته تلك ، ويتنبه إلا على صوت أنّة خافتة ، صدرت عن الرجل الجريح ، فمضى نحوه ، وجلس إلى جواره ومضت لحظاتٌ ، ثم فتح الرجل عينيه ببطء فلما شاهد (محفوظ) ، عاد فأغمضهما وفتحهما عدة مرات ، كأنما يتحقق من صدق ما يرى ، وحقيقة ما وقعت عليه عيناهُ ، فلما تحقق مما يرى ، بدت على وجهه علامات العجب ، ولم يكن (محفوظ) أقل عجباً منه .

مضى بعض الوقت – بعد ذلك ، لم يأت فيه أي من الرجلين بأي فعل أو حركة .

وأخيراً نطق الرجل الجريح بكلمات قليلة ، وجهها لـ (محفوظ) ، وانتظر الإجابة عنها ، فلما لم يتلقَّ من (محفوظ) إجابة ، أعاد النطق بالكلمات مرة أخرى ، ولكن لم يبدُ من (محفوظ) ما يدل على أنه فهم ما سَمِعَ ، عند ذلك ظن الرجل أن هذا الشاب قد يكون يتحدث ، ويفهم لغة غير اللغة التي يخاطبه بها ، فقرر أن يُعبر له عن مقصده بطريق الإشارة ، وحركات اليدين ، فأخذ يفتح فمه ، ويقرب منه قبضة يده ، كناية عن رغبته في شرب الماء ؛ ففتح الفم للشرب ، وقبضةُ اليد ترمز لكوب الماء ، فقد اعتاد الرجل أن يعبرَ عن طلبه للماء بتلك الحركة ، يأتيها بيده مُقبضةً ، يقربها من فمه ، فيفهم

غيره أنه يرغب في الشرب ، ولم يدُرْ بذهنه ، أو يخطر بباله ، أن هذا لإنسان الذي يجلس أمامه ، لم يرَ في حياته كوب ماء ، ولا استخدم في حياته وعاء لشرب الماء .

ثم أن محفوظاً فَهِمَ حسب إدراكه القاصر أن الرجل جائع ، فهب بسرعة شديدة ، وجرى نحو الفتحة التي كان قد أحدثها بالجبل ، فاقتحم عن طريقها إلى داخل الكهف ، وعبره بسرعة فائقة . وكان الضوء الذي دخل إلى الكهف من خلال الفتحة كافياً لإنارة الطريق أمام (محفوظ) ، مما ساعده على الإسراع .

مضى (محفوظ) يهبط من أعلى الصخور ، مجتازاً عرض الوادي ، حتى وصل إلى مكان يعرفه جيداً ، ويعرف أشجاره ، فاقتطف منها بعض ثمار الفاكهة الطازجة ، وعاد بها مسرعاً إلى الرجل الجريح ، لا يلوي على شيء .

قدم (محفوظ) الفاكهة إلى الرجل الذي أخذ يلتهمُها وقد أحس بالألفة نحو محفوظ ، والامتنان له ، ثم أعاد الإشارة ذاتها ، يطلب الماء . . وفهم (محفوظ) ما فهمه في المرة السابقة ، وظن أن الرجل لم تُشبعه تلك الحبات من الفاكهة التي قدمها له ، وأنه يبغي المزيد منها ، فهم بالقيام ، والعودة إلى الوادي الأخضر ، لجلب المزيد منها ، ولكن الرجل أمسك به برفق ، ثم أخذ يكرر الإشارة بيدٍ ، ويشير نحو البحر باليد الأخرى .

عندئذ ، فهم (محفوظ) مقصد الرجل ، وتذكر ماء البحر ، ومذاقه العلقم العجيب ، ففكر في أن يسقي الرجل من ماء النهر ، ولكن كيف يجلب له الماء وهو قد اعتاد أن يذهب

بنفسه للشرب من الماء في النهر كلما عطش ، وكذلك تفعل الغزلان والطيور ، لم يضطرَّ يوماً لنقل الماء من نهره ؛ فالماء في النهر ، يردُهُ كل من أراد الشرب منه ؛ حتى المريض من الحيوان ، إما أن يصل إليه فيشرب منه ، وإما أن يموت عطشاً .

وعبر (محفوظ) لأول مرة – في حياته – عن مكنون نفسه بالإشارة ، مثلما فعل الرجل ، فأشار إلى جهة الماء بيده ثم أشار بإصبعه إلى اتجاه الوادي الأخضر ، ثم قام من فوره ، واتجه نحو فتحة الكهف ، وكان يقف بعد كل عدة خطوات ، ويلتفت إلى الرجل يستحثه ، ويشجعه ليتقدم ، ويتبعه ، وأخيراً فهم الرجل مقصد (محفوظ) فتبعه ، وسار من خلفه .

مشى (محفوظ) في نفس الطريق الذي سار فيه في المرة السابقة ، وكان الرجل يتبعه ، وهو يتلفت ذات اليمين ، وذات الشمال ، كالمستوحش ، يدهشه كل ما يرى ، ويلفت انتباهه ، كل ما حوله .

حينما هبط الرجلان إلى أرض الوادي ، مضى (محفوظ) من فوره نحو النهر ، وأخذ يغترف منه بيديه ويشرب ، وهو ينظر إلى الرجل بين الغرفة والأخرى ، كأنما يعلمه كيف يشرب .

وتقدم الرجل نحو الماء ، وأخذ يشرب منه ، يغترف بيديه من مائه ، كما يفعل (محفوظ) ، حتى ارتوى .

بعد أن شرب الرجل من ماء النهر في الوادي الأخضر ، وارتوى ، تقدم من (محفوظ) ، وهو يبتسم له ، ويأتي بحركاتٍ ، وإشارات ، دليل الامتنان والشكر .

أما (محفوظ) فقد أمضى وقتاً يتأمل شكل الرجل ، وحركاته التي لم يفهم منها شيئاً ، ثم يذكر – فجأة – جماعته من الغزلان ، فجري نحوها ، وكان يعرف أين ترعى في ذلك الوقت من النهار .

وتبعه الرجل عن بُعد ، وهو لا يعرف وجهته . وسار (محفوظ) بين الأشجار ، واخترق الأحراش ، حتى بلغ موضعاً كثير العُشب ، كانت الغزلان – في ذلك الحين – ترعى فيه .

تقدم (محفوظ) نحو القطيع ، فلما أصبح بين مجموعة الغزلان ، حمل أحد صغارها بين ذراعيه – كما اعتاد أن يفعل في كل مرة – ومضى ، والغزلان من خلفه – نحو النهر ، وأخذ يتقدم شاقاً طريقه بين دروب الوادي ، التي اعتاد أن يسلكها ، يتبعه كل القطيع .

وكان الرجل يرقب كل هذا ، وهو في غاية التعجب والاندهاش ، وتأكدت في ذهنه حقيقة واحدة ، هي أن هذا الشاب إنما نشأ بين تلك الغزلان ، أو أنه أمضى بينها سنين طويلة من عُمره ، وإلا لما ألفته ، وألفها ، بحيث أنه يحن إليها هذا الحنين ، وتألفه هي مثل تلك الألفة ، فلا تنفر منه .

عندما صدرت الغزلان عن النهر ، بعد أن شربت ، كان (محفوظ) يتقدمها إلى الموضع الذي اعتادت أن تأوي إليه للمبيت ، فقد كانت الشمس تميل – ساعتئذ – نحو المغيب ، ولن تلبث أن تختفي ، ويعم الوادي الظلام .

ورأى الرجل الغريب عجباً ، وشاهد ما لم يشاهده قبل ذلك ؛ فقد رأى – وهو على رأس شجرة ضخمة ، متينة الفروع ، تسلقها حتى يرقُب ما يحدث من الشاب وغزلانه – رأى هذا

الشاب الآدمي ، بعد أن وصل إلى بقعة معينة من أرض الوادي ، يفترش الأرض ذات العُشب فيرقدُ ، وترقد جميع الغزلان حوله ، ثم لا يلبث أن يستسلم الجميع للنوم .

اندهش الرجل لما رأى ، وتعجب أشد العجب من أمر الشاب ، الذي – لا شك – نشأ بين هذه الغزلان وهو يعتقد أنه واحدٌ منها ، وقد لا يكون له علمٌ بوجود أناسٍ من بني جنسه أبداً . . ولكن كيف حدث هذا . . ؟ وكيف وصل إلى هذا المكان . . ؟ وأين أهلُه وذووه . . ؟ ترك الرجل مكانه من الشجرة ، ومضى نحو النهر ، فتوضأ ، وصلى صلاة المغرب ، ثم جلس يدعو الله ، ويسبحه ، حتى آن وقت صلاة العشاء فصلى ، ثم هيأ لنفسه مكاناً للنوم ، قُرب النهر ، غير أنه ما كاد يضطجع حتى عاد إلى ذهنه أمرُ ذلك الشاب ، فأخذ يفكر فيه ، واستغرق التفكير في هذا الأمر من الرجل شطراً كبيراً من الليل ، ثم قرر أن لا بد من تعريف ذلك الشاب بأصله ؛ من أنه آدميٌ ، كرّمه الله على سائر المخلوقات ، في البر والبحر ، وأنه ليس غزالا كما يعتقد ويتوهم ، لا بد من تعريفه بالله سبحانه وتعالى خالقه وبارئه ، وحافظه .

لكن قبل هذا وذاك ، يجب تعليمه الكلام ؛ فالكلام هو الوسيلة ، والواسطة لإيصال المعرفة إلى عقلِه ، وإيضاح الحقيقة له . .

وبعد أن فكر الرجل في كل هذا ، ووضع لكل أمرٍ خُطته ، دعا الله أن يوفقه في كل ما اعتزم عمله ، وأن يجعل إيمان هذا الشاب ، ومعرفته بالله ، وتوحيده لخالقه ، على يديه . . ثم استسلم بعد ذلك للنوم مطمئناً .

استيقظ الرجل عند الفجر ، فصلى ، ثم جلس يدعو الله ، ويسبحه ، وبينما هو كذلك إذ رأى على البُعد سرب الغزلان يمضي نحو المرعى ، يتقدمه (محفوظ) ، ففكر أن يلحق به ، ويدعوه للجلوس معه ، لكنه عاد ، فخشي أن ينفر السرب لرؤيته ، فيغضب صديقه الشابُ . عند ذلك آثر العُدول عن هذا الأمر .

(عبـــد الله)

كان أول عمل قرر أن يعمله الرجل ، هو أن يبني لنفسه كوخاً ، يأوي إليه ، ويستظل به من حرارة الشمس ، ويحتمي به من الرياح والأمطار ، والزوابع حتى يقيض اللهُ له مخرجاً من ذلك الوادي . .

فأخذ يجمع الأغصان ، وفروع الأشجار المتينة اليابسة . . فلما تجمّع لديه جزء منها ، شرع في حفر الأرض حُفَراً صغيرة عميقة ، ليثبت بها دعائم الكوخ ، وكان قد اختار من الأرض مكاناً مرتفعاً ، قُرب النهر ليبني عليه ذلك الكوخ ، ثم بدأ في إرساء دعائم الكوخ .

وبينما كان الرجل منهمكاً في عمله ذاك ، إذ أحس بمن يقفُ خلفه ، فالتفت ، فإذا بمحفوظ واقفٌ ينظرُ لما يفعلُه بتعجب شديد ، أفاق منه بعد فترة ، فتقدم نحو الرجل ، وقدم له بعض حباتٍ من الفاكهة ، تقبلها منه الرجل الشيخ ، وقال له بعفويه ، ومن غير تفكير ، وقد فات عليه في تلك الساعة أن الشابَ لا يفهم معنى لما يسمع . . قال له :

ــ شكراً . . شكراً لك أيها الشابُ الطيِّب . .

وبدت الدهشة على وجه (محفوظ) لدى سماعه صوت

الرجل ، وكانت تلك هي المرة الثانية التي يسمع فيها هذا الصوت ، فجلس على الأرض ، وقد فغر فاهُ دهشةً ، وأخذ ينظر إلى فمِ الرجل ، الذي خرجت منه تلك الكلمات .

أما الرجل ، فقد تأكد لديه أن الشاب لم يسبق له أن سَمعَ قبل ذلك أحداً يتكلم ، ولا نطق هو قبل ذلك بكلمةٍ واحدةٍ . فانتهز تلك الفرصة وأشار إلى ماء النهر ، وقال :

— ماء . . ماء . .

ثم دنا من الماء ، وأخذ بعضاً منه في كفِّه ، وأخذ يُرددُ الكلمة :

ماء . . ماء . .

وقضى فترة يطالعُ في وجه (محفوظ) الذي أخذ يُحرِّكُ شفتيه ببطء ، ثم نطق بصوت خافت : ماء . .

وبدأ البِشْرُ على وجهِ الرجل ، وأخذ يستحث محفوظاً بابتسامة تشجيع ، وهو يُردِّدُ : ماء . . ماء . .

وبرقت عينا (محفوظ) ، وهو ينطق بأول كلمة تعلّمها . . ونطقها هذه المرة بصوتٍ مسموع :

— ماء . .

وكم كان سرور الرجل ، وسعادته ، إذ سمع محفوظاً ينطق بتلك الكلمة ، فأمسك بعودٍ من العيدان ، وهو يقولُ :

— عود . .

وفي هذه المرة ، لم يتردد (محفوظ) كثيراً ، بل نطق بالكلمة على الفور ، وأخذ يُرددها من نفسه عدة مراتٍ .

وما إن انتصف نهار ذلك اليوم ، حتى كان (محفوظ) قد عرف وحفظ أسماء لعشرة أشياء ، وكان فَرِحاً سعيداً بهذا .

حتى اسمه ؛ فقد صار له اسم في ذلك اليوم ، غير اسمه الذي أطلقناه عليه – مجازاً – من واقع حاله ، إذ حفظه الله ؛ فأسميناه محفوظاً . ولما كان الرجل لا يعرف له اسماً ، ولا كان هو قد سمى نفسه باسم ، لذلك فقد أطلق عليه الرجل اسم (عبد الله) وعرف (محفوظ) اسمه الجديد ، وحفظه ، وأجاد نُطقه ، فصار يُشير إلى نفسه بإصبعه ، ويقول : . . (عبد الله) أو يشير إلى الرجل ، بعد أن عرفه باسمه، وحفّظه إياه ، ويقول :

– صالح . .

وذلك كان اسم الرجل .

ونشأت ألفةٌ عظيمةٌ بين الشيخ (صالح) و (محفوظ) ، الذي أصبح اسمه (عبد الله) ؛ فقد وجد كل منهما في الآخر خير أنيسٍ له في وحدته .

وحينما حل مساء ذلك اليوم ، لم يكن صالح الشيخ قد أتم بناء الكوخ بعد ، كان ما يزال يجمع بعض أغصان الشجر الرفيعة ، ليضع منها السقف ، وكانت الشمس قد أخذت تميل نحو المغيب ، وفجأة هب (محفوظ) واقفاً ، وقال ، وهو يُشير إلى صدره بإصبعه ثم يشير نحو مكان الغزلان :

— عبد الله . . . غزال . .

وكان قد تعلم ضمن ما تعلم من الشيخ صالح كلمة غزال . .

قال (محفوظ) هذا ، ثم مضى صوب المكان الذي اعتاد أن يقضي فيه الليل مع الغزلان .

أما صالح ، فلم يعترض سبيله ، أو يمنعه من الذهاب ، فقد كان رجلا حكيماً ، يُرجيءُ كل أمرٍ من الأمور لوقته .

ومضى يومان آخران ، واكتمل بناء الكوخ ، على صورة جميلة ، متينة ، وكان (محفوظ) يساعد صالحاً فيجمع لهُ العيدان ، ويحمل معه كتل الحطب ، بينما لم يدع صالح فرصة تمضي دون أن يعلمه فيها كلمة جديدة ، حتى أصبحت حصيلته من الكلمات طيبةً .

كان (محفوظ) في تلك الأيام الثلاثة يقضي كل نهاره مع الشيخ صالح ، يعاونه ، ويتعلم منه الكلام ، وما أن يحل المساء حتى يغدو إلى حيث ترقد الغزلان ، فيبيت بينها ، كما اعتاد .

أما في ذلك المساء ، وحينما هب (محفوظ) واقفاً ، وهو يهم بالذهاب إلى حيث ترقد الغِزلان ، أمسك به الشيخ صالح من يده — برفقٍ — وقال له :

— أنت ترقدُ هنا في الكوخ .

وكرر الشيخ صالح العبارة عدة مراتٍ ، حتى فهمها (محفوظ) ، فبدا العجب على وجهه ، وصمت فترة طويلة ، وأخذ ينظر إلى الجهة التي ترقد فيها الغِزلان وهو حزين كئيب ، ثم التفت إلى الشيخ صالح ، وأخذ ينظر إليه وهو يفكر ، وكأنما هموم

الدنيا كلها قد تجمعت في نفسه ، ثم جال ببصره في أرجاء الكوخ ، وقلب بصره بين جدرانه ، وفي النهاية ، ألقى نظرة حانية في اتجاه مرقد الغزلان ، ثم جلس على أرض الكوخ وهو متردد بعض الشيء .

في تلك الليلة ، حدثه الشيخ صالح عن الفرق بين الإنسان والحيوان ، والفرق بين الطائر والغزال . .

وتقدم الليل ، فنام صالح ، أما (محفوظ) فقد قضى شطراً كبيراً من الليل وهو ساهرٌ ؛ فالمكان غريب عليه ، إذ كانت تلك أول ليلة يقضيها تحت سقف منذ أن وعي عقلُه الحياة .

وأخذ (محفوظ) يستعيد في ذهنه حديث الشيخ صالح ، فيستوعب إدراكه منه بعضاً فيدركه ، ولا يفهم لبعضه الآخر معنىً فيترك التفكير فيه .

الصّـــلاة

استسلم (محفوظ) للنعاس ، آخر الأمر ، ثم أخلد للنوم ، فنام نوماً عميقاً ، لم يستيقظ منه إلا في الثلث الأخير من الليل . .

استيقظ على حركة خفيفة ، فقد كان يقظاً كثير التنبه وهو نائمٌ ؛ ما إن تحدث حركةٌ في ما حوله ، حتى يتنبه ، ويهبَّ من رقاده ؛ فتلك كانت عادته ، ولعلها عادة اكتسبها من عيشه مع الغزلان ، ونشأته بينها.

. . استيقظ . . وفتح عينيه ، ودار بهما بحثاً عن مصدر الحركة ، حتى استطاع — وعلى شعاعات ضوء القمر القليلة التي كانت تتسرب للكوخ من بابه — أن يتبين ما يحدث ، فقد كان الشيخ صالح في تلك الساعة يصلي ، أما (محفوظ) ، فلم يستطع أن يفهم شيئاً من هذا الذي يحدث أمامه ، إذ كانت تلك أول مرة يرى فيها الشيخ وهو يصلي ، ولم يفهم من تلك الحركات إلا أنها حركاتٌ غريبةٌ .

تعجب (محفوظ) مما رأى ، واعتقد أن ما يفعله الشيخ صالح إن هو إلا لهوٌ ، يقوم به الشيخ ، كما كان يلهو هو أحياناً مع الغزلان ، أو بمفرده ، فيقفز ، ويجري ، ويأتي ببعض الحركات الأخرى .

لم يشغل (محفوظ) باله كثيراً بما رأى ، بل انقلب إلى جنبه

الآخر ، ونام ، ولم يُعِر الأمر اهتماماً كبيراً . .

ولكن عندما استيقظ عند الفجر ، وكان ضوء الفجر يغمر الوادي ، رأى على ذلك الضوء ـ الشيخ صالح ، وهو يقوم بنفس الحركات ، فقد كان الشيخ في تلك الساعة يؤدي صلاة الفجر .

وقف (محفوظ) يتأمل وجه الشيخ ، وعلى الرغم من أن عقله لم يستوعب ما يفعله الشيخ ، وأنه لم يكن يدرك ، أو يعرف شيئاً مما يحدث أمامه ، إلا أنه أحس في قرارة نفسه ، وهو يطالع في وجه الشيخ ، أن ما يفعله الشيخ هو فعلٌ طيبٌ ، وليس فعلا سيئاً ، أو ضاراً وليس لهواً كما اعتقد في أول الأمر .

أحس (محفوظ) بكل هذا بفطرته ، بل قرأه في وجه الشيخ ؛ في نظراته ، وقد كساها الرجاء والأمل ، وهو يدعو الله في دعةٍ وسكينة وهدوء ، أكسبت ملامح وجهه ، وهو واقفٌ بين يدي الله بهاء وهيبة ، وجلالا . . كان (صالح) في تلك اللحظة يدعو ربه في أمل ، وفي ثقة بالاستجابة ، وقد رفع كفيه في رجاء وذلة . . فكان لكل هذه الأفعال الرصينة الخاشعة تأثيرها في نفس (محفوظ) . . ووقع في قلبه ـ مما رأى ـ ما لم يقع له قبل ذلك ، فهو لم يمارس في حياته سوى الأكل والشرب ، والنوم . . ثم تلك اللحظات القليلة من التأمل في الشمس وفي بعض الموجودات من حوله . .

وكان تأمله وتفكيره في الشمس أو العواصف أو المطر أو الصواعق ينتهي دائماً بالخوف والفزع ، خوفاً يبدد عليه سكينة نفسه ويزعجها . أما هذا الرجل . .

وفكر (محفوظ) ، وقال في نفسه : لعله يقف الآن يفكر مثلي في قـــوة الشمس ، وسطوتها ، وجبروتها ، ولعله يخشاها . .

ولكن . . وأعاد (محفوظ) النظر إلى وجه الرجل ، فوجده هادئاً مطمئناً ، لا يبدو عليه الخوف أو الجزع ، بل يبدو عليه الاطمئنان ، والسكينة ، والسلام ، إذن . . ماذا يفعل يا ترى . . ؟

وتقدم (محفوظ) ، حتّى وقف في قُبالةِ الشيخ وهو يصلي ، وأخذ يشير بيديه ، ويردد بعض الكلمات ؛ كان يسأل الشيخ بتلك الحركات ، وبالكلمات القليلة التي تعلمهاوالتي لم تكن تُعبرُ تماماً عما يقصد .

ولكن الشيخ لم يجب على إشارات (محفوظ) ، ولا على تساؤلاته على الرغم من أنه فهمها ؛ فقد سأله عن وقفته تلك ، وماذا يفعل . . فلما لم يجب ، سأله مرةً أُخرى :

— هل أنت غاضبٌ مني . . ؟

لم يكن في مقدور الشيخ صالح ، وهو يقف موقفه ذاك من الصلاة ، أمام الله عز وجل ، أن يجيب على تساؤلات (محفوظ) ، على الرغم من أنه فهم أسئلته .

ولكن ما إن أنهى الشيخ صلاته حتّى التفت إلى (محفوظ) ، وأجاب عن سؤاله الأول ، مستعيناً ببعض الكلمات التي يعرفها محفوظ .

كانت إجابة الشيخ غير واضحة المعنى بالنسبة لمحفوظ الذي أخذ يكثر من الأسئلة ، يستفهم بها ، ولكن كلمة واحدة

ومهمة في إجابات الشيخ لم يستطع (محفوظ) أن يفهمها باللفظ ، أو بالإشارة ، تلك هي كلمة (صلاة) .

وحينما قام الشيخ صالح واقفاً راكعاً ساجداً يصلي الظهر ، كان (محفوظ) يفعل مثل فِعْلِه من غير أن يُدرك لما يفعل معنىً .

قرر الشيخ صالح في ذلك اليوم أن يقوم بتعليم (محفوظ) بعض الكلمات التي تُعينه على تعلُّم أمور الدين . وفي ذلك اليوم نطق الشيخ امام (محفوظ) بكلمة : « شمس » ، وهو يشير إليها.. وكررها عدة مرات ، فكررها (محفوظ) وهو خائفٌ ، ثم كلمة « سماء » وكلمة « نهار » وكلمة « خوف » ، و « أمان » . . وعلمه كذلك مدلولات الألفاظ للأفعال ، كالوقوف والجلوس ، والركوع ، والسُّجود .

وبعد ثلاثة أيام ، كان (محفوظ) قد تعلم كل ما كان يودُّ الشيخ أن يعلّمه إيّاه من كلمات ، وكان يكررها باستمرار ، وهو يشير إلى المسميات ، وكان من أسعد اللحظات لديه ، عندما يجلس إلى الشيخ ، ويكرر ما تعلمه من أسماء الأشياء الموجودة حوله ، ويقوم بحركات وهو ينطق بالكلمات الدالة عليها ، ويراقب علامات البشْر على وجه صالح (الشيخ) . وكان يبدأُ ذكر الأشياء بنفسه وبالشيخ ، فيقول ، وهو يمُدُّ أصبعه يشير به إلى صدره (أنا . . عبد الله) ، ثم يشير إلى الشيخ ، ويقول : (أنت . . صالح) ، ثم يمضي في ذكر أسماء الأشياء ، وهو يشير إليها فرحاً سعيداً : – سماء – نبات – ماء – حيوان – غزال – شجرة . .

حينما تأكد الشيخ واستوثق من أن محفوظاً قد عرف كل

أسماء الأشياء الموجودة حوله ، وكل أسماء أعضاء جسده من يد ورأس وقدم وعنق . . . ومدلولات الأفعال من قيام وقعود وغيرها ... عند ذلك ، أخذ في تعليمه التخاطب بجُمل ذوات معان مفيدة ، كاملة التركيب . . حتى أصبح بعد مضيّ شهر – تقريباً – قادراً على التعبير عن رغبانه ، ومكنونات نفسه ، فأصبح يقول مثلاً : (أنا أريد أن أذهب) ، (الغزال نائم) (أنت تجلس داخل الكوخ) . . إلى غير ذلك .

وهكذا أصبح التفاهم بين (محفوظ) والشيخ صالح ميسوراً ، بل لم يعد الشيخ يشعر بفارق كبير في مخاطبة (محفوظ) ومخاطبة غيره ممن ترك هناك من أهل في موطنه الذي قدِم منه .

وترك (محفوظ) الانشغال بأمر صلاة الشيخ صالح ، بل أصبح حال الشيخ صالح وهو يصلي مألوفاً لديه ، ولو أنه لم يكن يفهم لها معنىً ، أما صالح فقد كان يُرجيءُ توضيح أمور كثيرة (لمحفوظ) لليوم الذي يستطيع فيه عقل (محفوظ) إدراك تلك الأمور .

وفي ذات ليلة ، وبينما كان الشيخ صالح يجلس أمام الكوخ وكان يجلس بجواره (محفوظ) ، وكان القمر في ليلة تمامه ، ظهرت بعض الغزلان في مكان مكشوف ، بالقرب من النهر ، وأخذت تقفز وتلعب ، فرحة مرحة ، عندئذ قال (محفوظ) :

– تفرح الغزلان بهذا القمر . .

وأشار نحو القمر ، ثم استأنف حديثه :

– والشجر أيضاً يكون لونه جميلاً ، وماءُ النهر يتغير لونه ، فيلمع ، ويصبح جميلا . . جميلا . .إنه يصنعها جميعاً . .

تعجب الشيخ عندما سمع عبارة (محفوظ) الأخيرة ، وسأله باندهاش :

— من يصنعُها . . ؟

محفوظ : القمر هو الذي يصنع الأشياء الجميلة ، والشمس أيضاً تنبت النبات ، وتظهر بالليل أحياناً فتحرق الشجر عندما تسقط عليه . .

صالح : ما هذا الذي تقوله يا عبد الله ؟

محفوظ : هذا ما أعرفه تماماً . . فحينما كنت صغيراً ، كنت أظنُّ أن القمر هو الذي صنع الأشياء جميعها ، لذلك كنت أفرح حينما يظهر ، وأراه ، وأمرح لأن الغزلان أيضاً تمرح حين تشاهده يظهر ، وكنت أتمنى ألاَّ أنام في تلك الليلة ، بل أودُّ لو أقضيها كلها أنظر إلى هذا الشيء الجميل المعلق في السماء . . فإذا ما غلبني النُّعاس ، فنمت في تلك الليلة ، نمت وأنا سعيد مسرور مغتبط . . ولكن في بعض الليالي ، كان القمر يختفي ؛ ويغيب لعدَّة ليالٍ ، فلا يظهر ، ويصيبني في تلك الليالي اكتئاب شديدٌ ، وحزنٌ لافتقاده . أحسَّ الشيخ صالح أن الفرصة قد حانت لإفهام (محفوظ) حقيقة الكون ، وخالقه ، وموجِده ، فقرر أن يجاريه في أول الأمر ، فسأله :

صالح : ولماذا تحزن لافتقاد القمر يا عبد الله . . ؟

محفوظ : لأنه هو الذي يهبني النشاط ، إذن فهو الذي يهبني الحياة ، والقوة . .

صالح : وحينما يغيب القمر ، هل يموت الشجر والحيوان ؟ وهل تفقد أنت الحياة أو القوة والنشاط . . ؟

محفوظ : لقد فكّرت في هذا ، عندما كبرتُ قليلا . . .

صالح : فماذا وجدت . . ؟

محفوظ : وجدت أنه لا فرق – في حالتي – في ليلة يطلع فيها القمر ، وليلة لا يطلع فيها ، غير السرور والمرح ، أما القوة والحياة ، فلا تختلف في الحالتين ، وعند ذلك قلت في نفسي : إذن فالقمر لا يملك قوة يغيِّر بها حالي ، ما دامت قوتي هي قوتي ، وحياتي هي حياتي ، وزال – حينئذ – من نفسي الخوف من القمر ، وزالت رهبتي منه ، فهو لا يملك أن يهبني شيئاً ، أو أن يسلبني شيئاً ، أو يضرني ، أو يقتلني . . وقضيت تلك الليلة أفكر في كلِّ هذا ، فلمْ أنمْ معظم الليل ، وفي الصباح لم توقظني إلا أشعة الشمس ، وحرارتها ، فاستيقظت وأنا أتألم من حرارة الشمس ، وكانت جميع الغزلان – ساعتئذ – قد ذهبت للمراعي وفتحتُ عيني ، وواجهت بهما الشمس ، فلم أستطع أن أنظر إليها ، وكانت أشعتها قوية ، ووهجها صاخباً ، ولم أستطع أن أركِّز عليها بصري ، فقلت :
– إذنْ ، هذه القوية ؛ هذه الشمس العاتية ، الجبارة ، القوية ، الكبيرة ، التي هي أقوى من كلِّ الكائنات ، هي التي تصنع الكائنات ، أما القمرْ فيصنع الجمال في بعض الليالي . . .

أما الشمس – يا سيدي – فهي القوة ، هي التي تصلينا بنارها ، وهي التي تنبت الزرع ، وتُدفيءُ الجو ، وتسقط على الأرض أحياناً ، فتحرق الشجر وما حوله . . وهي قبل أن تفعل ذلك تدوي في السماء بصوتٍ قويٍ . .

صالح : تُدوِّي . . ؟ أيُّ دويٍّ هذا . . ؟

محفوظ : إذا اختفت الشمس وراء السحب ، نزل الماء من السماء ، وتسمع للشمس دويّاً مرعباً وحاداً . .

صالح : تقصِد الرعد – يا محفوظ ؟

محفوظ : لم أسمع منك هذه الكلمة قبل ذلك ، أهذا الصوت الذي أسمعه من الشمس اسمه الرَّعد ؟

صالح : نعم هو الرعد . . . ولكنه ليس هو صوت الشمس كما تعتقد . . .

محفوظ : إنه صوتها . . فهو يأتي بعد أن يلمع نورها القويُّ بين السحاب ، وأحياناً تسقط على هذا الوادي ، فتحرق الأشجار . . وتدمّر . . وتقتل . . إنها قوية ، وإني أراك أنت أيضاً ، تقف وتتحدث إليها ، دوماً ، عند الصباح ، وتناجيها قبل شروقها ، وبعد غروبها ... أنت أيضاً – يا صالح – تطلب منها الأمان ، والرَّحمة ولا تتحدث إليَّ ، أو تجيب على أسئلتي حين أسألك ، خوفاً منها ، وتأتي – كما رأيتك قبل قليل – بتلك الحركات . .

صالح : إنني – يا عبد الله – حينما أقفُ ، ولا أتحدثُ إليك ، وأناجي ، فإنما أناجي ربِّي الله . .

محفوظ : اللهُ . . ؟ ! إنّك لم تعلمني هذه الكلمة أيضاً . . من هو الله . . ؟

صالح : الله هو خالق كل شيء . . . خلقني ، وخلقك يا عبد الله ، أوجدك من عدم . . . الله هو الذي خلق الإنسان ، والحيوان ، والنبات . . . وهو الذي خلق الليل والنهار . . والشمس والقمر ، وسخّرهما لنا ، هو الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل لنا من السماء ماءً – هو المطر – الذي ذكرته يا عبد الله . . وأخرج لنا من الأرض النبات . .

الله الذي ينزِّل المطر لترتوي الأرض ، وينبت النبات.. وفي المطر حياة الأرض ، ومَن عليها من إنسان وحيوان . . . والرَّعد هو الصوت الذي تسمعه مع المطر . .

محفوظ : أتعني صوت الشمس خلف السحاب ؟

صالح : صوت الرعد لا يأتي من الشمس ، بل من السُّحب التي خلقها الله وأنشأها ، وساقها ، وسخّرها . . . فالله هو الذي ينشيء السحاب الثِّقال التي تراها في جوِّ السماء . . والرعد يأتي منها تسبيحاً بحمد الله على نعمته على أهل الأرض . . وما تفضَّل به عليهم من ماءٍ يكون سبب خير لهم ، فيسبِّح الرَّعد بحمده . . .

محفوظ : إنّك تقول لي اليوم كلاماً لا أفهمه .. يسبِّح هذي

كلمةٌ لا أفهم معناها . . وكلمة خلقَ والحمدُ . .
إنني لا أكاد أفهم شيئاً مما تقول – يا سيدي . . .

فكّر الشيخ صالح ، وقرر أن يمضي في حديثه ، مُجملاً وليفهم منه عبد الله ما يفهم ، لعلّه من خلال هذا يستطيع أن يمحو من عقله بعضَ ما استقرَّ به من فهمٍ خاطيءٍ للكون ، ثم يعود بعد ذلك فيوضّح له كلَّ أمرٍ في وقته على حدَةٍ .
قال (محفوظ) : وضوء الشمس الذي نراه بين السحاب بالليل ، ما هو . . ؟

صالح : إنه ليس ضوءها . . إنه البرقْ . .

محفوظ : البرقُ . . ؟ ! ! هذا الضوءُ عند المطر . . يسمى البرق . . ؟

صالح : نعم . . إنه البرق . . يرينا الله إياه خوفاً وطمعاً . . .

محفوظ : طمعاً . . ؟ ما معنى طمعاً . . ؟

صالح : يعني أملاً وعشماً في الله ورحمته . . ؟

محفوظ : وكيف نخاف ونأمل . . . ؟

صالح : نخاف من البرق لأن الصاعقة التي تسقط على الأرض وتحرق الشجر وكل ما يصادفها تعقبُ البرق دائماً . . وتأتي بعده مباشرة . . .

ونطمع ونأمل في رحمة الله ، في المطر الذي يصحب البرق . . . نطمع أن ينفعنا الله بذلك المطر الذي

ينزّله . . فتنبت الحشائش والنباتات وترتوي الأشجار ، فتخرج الثمار التي نأكلها – يـا عبد الله والحشائش للحيوان . . ويسيل الماء . . فتجري المياه في الأنهار . .

محفوظ : أالله هو الذي ينبت الحشائش للغزلان أيضاً . . ؟ ما هذا الذي تقوله – يا سيدي – ؟ بل الشمس هي التي تفعل ذلك حينما تختفي تحت الأرض بالليل .

صالح : الله هو الذي يُنبت النبات ، ويُخرج الثمرات لتأكل منها أنت ويأكل منها الحيوان ، وكلُّ مخلوق ، الله الذي خلقنا وخلق الحيوان ، خلق لنا النبات والثمرات ، وأنزل لنا الماء ليُطعمنا جميعاً ، ويسقينا . .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » .

لا تغيب عنه غائبة . . الله هو الذي يُحيي ، ويميت . . يعلمُ بكلِّ ما يحدث في السماءِ والأرضِ ، لا تغيبُ عنه غائبة في السماء ولا في الأرضِ . . ذلك يا أخي هو الله رب العالمين . .

اقترب (محفوظ) من الشيخ صالح ، وهو منبهرٌ بما سمع ، مندهش متعجب ، وقال له :

أعِدْ عليَّ – يا سيدي – كلَّ ما قلته ، إنّه قولٌ عجيبٌ ، من أين أتيت بهذا الحديث . . ؟ فقدْ مضى زمنٌ طويل منذ أن عرفتك ، في ذلك اليوم الذي وجدتك فيه – هُناك – عند البحر ، ولكنك لم تحدثني يوماً بمثل هذا الحديث .

قال الشيخ صالح لـ (محفوظ) : لقد آن الأوان لأحدِّثك ، فانتبه ، لأنَّ هذا الذي سأقول لك ، يتطلّب منك الانتباه ، والتفكّر . .

محفوظ : قلْ ، فقد شوَّقتني .

صالح : يا عبد الله — منذ أن نشأت في هذا الوادي ، هل لاحظت أنَّ يوماً لم يكن له نهارٌ أو ليلٌ . . ؟

محفوظ : لا ، فالليل يعقبُ النهارَ ، والنهارَ يعقبه الليل . . .

صالح : هل حدث أن تكرر النهـــار مرتين ، متتاليتين ؟ أو تكرر الليل مرتين متتاليتين . . ؟

محفوظ : لا . . لم يحدث هذا . . .

صالح : الشمس والقمر في دورانهما ، هل حدث أن اختلفا ؟

محفوظ : لا ، لم يحدث ، فالشمس تطلع بالنهار ، والقمر بالليل أحياناً ، وأحياناً يختفي ، ولكنه لم يطلع بالنهار قط . . والشمس أيضاً ، لا تطلعُ بالليل إلا في تلك الليلة . . .

صالح : أيّةُ ليلة تعني ؟

وقصَّ (محفوظ) على صالح ما حدث وشاهده في تلك الليلة العاصفة الممطرة التي سقطت فيها العاصفة على الوادي .

قال له صالح بعد أن سمع القصَّة :

— إن الذي سقط فأحرق الشجر والنبات ليس هو

الشمس ، فتلك كانت صاعقة ، نار هبطت من السحب فأحرقت الشجر . .

محفوظ : إذا كان الأمر كما ذكرت ، فالشمس لا تطلع إلا بالنهار ، كما أن القمر يطلع بالليل . . .

صالح : بعض الغزلان تُولد ، وبعضها يموت . . .

محفوظ : نعم هذا صحيح . .

صالح : تُرى من يتحكم في هذا كله وينظمه يا عبد الله . . ؟

محفوظ : لست أدري . . إنّما كلُّ هذا يحدث وحسب . .

صالح : وهل يحدثُ فعلٌ من غير فاعل — يا عبدَ الله ؟ هل يتحرك شيءٌ من غير أن يحرِّكه أحد ؟

محفوظ : لا . . فكل حركة لا بد لها من محرك . . وكل فعل لا بدّ له من فاعل . .

صالح : الله هو الذي يُحرك كلَّ هذه الأشياء . . وهو الذي خلقها . .

محفوظ : هل خلقني أنا . . ؟

صالح : نعمْ ، الله خلقَك ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ ، خلقَك وأنت في بطن أُمّك . .

قال محفوظ مقاطعاً :

أُمي . . ؟ لقد كنت في بطن غزالةٍ مثل صغار الغزلان ، ثم خرجتُ ، وكبرتُ . .

صالح : إن أُمك ليست غزالة يا عبد الله – بل هي إنسانةٌ مثلُك ومثلي ، حملتْك في بطنها كما تحمل الغزالة ، ثم وضعتك صغيرًا ، ضعيفاً مثلَ صغارِ الغِزلان ...

محفوظ : أنا ...؟! لي أمٌ تُشبهني ..؟!!

صالح : نعم ، لك أُمٌ ، ولك أبٌ . . وهُناك أعدادٌ كبيرةٌ من بني الإنسان مثلك . . يتوالدون كما تتوالد هذه الغِزلان .. قد جعل الله منهم الآباءَ والأبناءَ والحفدَةَ .. يعني أبناءَ الأبناء ..

محفوظ : وأين هم هؤلاء المخلوقات ؟

صالح : إنهم النّاسُ . .

محفوظ : هل هذا هو اسمهم ؟

صالح : نعم ، الواحد منهم إنسانٌ . .

محفوظ : أأنا إنسانٌ ؟

صالح : أنت إنسانٌ ، وأنا إنسانٌ . . كُلُّنا أبناءٌ لآدم .

محفوظ : ومن آدمُ ؟

صالح : آدم هو أبُ البشر جميعاً . . أولُ إنسان خلقه الله ، وكرّمه . . ثم خلق حواءَ أُمّنا . . فولدا وتوالدَ أبناؤهُما ... ونحن من أبنائِهما ... فأنت ابن آدم .. ولست غزالاً ، ولا حيواناً آخرَ . . .

محفوظ : وأين هم هؤلاء الناس . . ؟

صالح : إنهم هناك ، في أماكن كثيرة غير هذا الوادي . . هناك وراء البحر ، وراء هذه الجبال .

محفوظ : ما كنت أعتقد أن هناك من يشبهني من المخلوقات .. وحتى حينما رأيتك أول مرة . . تعجّبت أشد التعجب ، وقلت في نفسي : ها هو مخلوق آخر يشبهني . . أما أن يكون هناك كلُّ هذا العدد من المخلوقات . . من الناس التي تشبهني . . فهذا أمر عجيب . .

صالح : لو أراد الله لنا أن نخرج من هذا المكان لرأيت من بني آدم أعداداً كبيرة . .

سرح (محفوظ) بخياله ، لعدّة لحظات ، ثم عادَ ليقول لصالح :

ـ حدّثني يا صالحُ عن خالق الأشياء ، ومحرّكها ، وحدثني عن نفسي وكيف . .

وصمت (محفوظ) فجأة ، وكاد يبكي ، وهو يقول :

ـ كيف لا أكون من هذه الغزلان . . لقد نشأت بينها ، وأنا أعتقد أنني واحدٌ منها . .وأنَّ واحدةً منها ولدتني . . .

صالح : يا عبد الله ، أيُّها الإنسان ثِق إنه لم تلدْك غزالة ، ولعلك كنت هنا قبل أن تعي ، أو تعلم من أمر نفسك شيئاً ، فالله أخرجك من بطن أُمك لا تعي شيئاً ،

الله أوجدك وكرّمك وفضّلك على سائر المخلوقات ، الله خالق الكون ، هو الذي خلقك . . وخلق كلّ شيءٍ من أجل الإنسان . . وجعل الحياة سهلة بالنسبة للإنسان ، إذ جعل له العقل الذي يفكّر به ، واليدَ يعمل بها ، أنظر إلى يدك — يا عبد الله — هل للغزالة يدٌ مثلها . . إنك تستطيع أن تفعل بيدك كلّ شيءٍ ، والغزلان والطير لا يستطيعون ، إذنْ فالله فضّلك عليهم ... وعقلك الذي يعمل باستمرار ، ويدلُّك على ما ينفعك . . وهذا اللسان الذي تنطق به ، هل تستطيع الغزالة أن تنطق مثلك . . ؟

الله سخر لنا كل شيء ، الأشجار نأكل من ثمارها ، ونستظل بظلها ، ونبني من فروعها وسيقانها السّكن الذي نأوى إليه . .

والله الذي جعل لنا الشمس ضياءً ، والقمر نوراً ، وجعل لنا النهار والليل ، النهار لنبحث فيه عن الرزق ، والليل لننام فيه ، ونستريح من عَناء النّهار ، وفيه تستريح عقولُنا . . .

من يُنزّل الماء من السماء ، فيجري في هذا النهر لتشرب منه أنت والغزلان ، وكل المخلوقات التي في هذا الوادي ، فلا تتألم من العطش ، أو تموت ظمأ ... من ينزّل هذا الماء ليُنبت به الشجر الذي تأكلُ أنت منه الثمر ... ؟ من ينبت العُشب الذي تأكل منه الغزلان فتشبع ، وتنمو أجسامها ، وتقوى ، وتكبرُ ، وتزيدُ ؟ . . ثمارٌ طيبةٌ ، متنوعةٌ ، حلوةُ

المذاق ، تأكل منها أنت فلا تضرُّك ، بل تفيدك ، وتقويك ، والأعشاب تأكل منها الغزلان ، فتشبع ، وتقوى ، وتشفى . . .

من صنع كل هذا ؟ ومن يفعل كل هذا . . ؟

لا بد أن هناك من يصنع ، ويفعل كل هذا . . لا بدَّ أن هناك من ينزل الماء من السحاب بقدَر ، بكمية محدودة تملأ هذا النهر ـ يا عبد الله ـ ، ولا تزيد ، وإلاَّ أغرقت الوادي ، ماءٌ يسقي الشجر والعشب ، فلا يزيد وإلا أغرق الشجر والعشب فمات جميعه بسبب كثرة الماء ، وتلفت ثماره ، وماتت ، فلا تجدُ أنت ما تأكله منها فتموت أيضاً ، من ذا الذي يحفظ الحياة لك وللحيوان والنبات . . ؟ لا بدَّ ـ يا عبدالله ـ أن هناك من يفعل ذلك . . ؟ ذلك هو الله . . الله خالقُ كل شيء بمقدار ، وهو ربٌّ رؤوف رحيم ، خبيرٌ بما يحتاجه كل مخلوق ، عطوف بك ، وبكل المخلوقات ربٌّ لا يغفل عن شيء ، ولا يغيب عنه شيء في السموات ، ولا في الأرض ، مهما صَغُرَ ولو كان بوزن الذَّرة الصَّغيرة وحجمها :

« إنَّهَا إنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَّاتِ أَوْ فِي الأرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ ، إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

هذا الغزال الصغير ، الذي تراه يخرج من بطن أُمه ، من صَنعه يا عبد الله ؟ وجعلَ له عينين وصوَّره في هذه الصورة الجميلة . ؟

هل صنعته أُمّه ؟

أنت تعرف – يا عبد الله – أنّ أُمّه لا تستطيع أن تصنع شيئاً . .

إذن ، من صَنعه ؟

هل صَنع نفسه ؟

فكّر يا عبد الله ... لا بدّ من صانع لكل هذا ، الشمس لا تصنعُ ، والقمر لا يصنعُ ولكنّ هناك ربا يصنعُ ، ويخلقُ ، هو الله ؛ خلقك في بطن أمّك . .

قال محفوظ ، وكأنما يحاول أن يثبت لنفسه حقيقة :

– إنّ أُمي ليست غزالة . .

صالح : إنّ أُمّك ليست غزالة . . أُمّك إنسيةٌ ، وأنت إنسانٌ .

أتذكرُ يوم أن حدّثتك عن الفرق بين الإنسان وغيره من المخلوقات . . أنت إنسانٌ ، وأُمّك إنسان مثلك ، خلقك الله في بطنها ، كما يخلقُ ابن الغزالة في بطن أُمّه . . .

محفوظ : ألله خلقني في بطن أُمي ؟ ! !

صالح : نعم خلقكْ داخل بطنها وظلامها ، خلْقاً من بعدِ خلْقٍ . . .

محفوظ : ما معنى هذا . . ؟ كيف الخلْق من بعد الخلْق ؟

صالح : لقد كنت قطعة دمٍ صغيرة ، في بطن أُمك ، خلقها الله ، ثم خلق منها عظامك هذه ، ثم كسا العظام لحما ، ثم أنشأ من هذا اللحم الأعضاءَ جميعاً . . وأكمل خلقَك إنساناً كاملا سوياً وجعل لك السَّمعَ ، والبصرَ والفؤادَ ، حتى تعي كل شيء ، وتميز بين الخير والشّر وبين الحق والباطل ، جعلَ لك العقل ، الذي هو أهم فارق بينك ، وبين بقية المخلوقات ، إليه تصلُ معاني كل الأمور ؛ كل أمر تراه أو تسمعه ، أو تحُسه ينتهي إلى العقل ، فيفهمه ، وتأخذ أنت منه العبرة . . العقلُ يصل إليه كل ما تسمعه الأذنان ، أو تبصره العينان ، أو يحسُّه أيٌّ عضو في الجسد . . . الله خلقَ للإنسان هذا العقل . . وكلّما تعلّم الإنسانُ علماً ، أو تفوَّق عن طريق العقل ، فالفضل يرجع لله الّذي خلقَ العقل وأبدعه . .

صمت صالح للحظةٍ ، ونظر إلى وجه (محفوظ) ، وقال له :

صالح : إحمدِ الله ، يا عبد الله ، قُل الحمد لله الذي جعلني أعرفَ الكلام وأفهم الألفاظ . قل الحمد لله . .

محفوظ : الحمدُ للهِ . .

صالح : نعم ، الحمد لله ، فهو الرَّب الحافظ ، الذي لا يغفل عن خلقه ، ولا ينامُ ، ولا ينعسُ ، ولا يموتُ ، ولا ينسى ، ولا يسهو ، يقوم على كل أمر :

« اللهُ لا إلـهَ إلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ

سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ، لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ » .

محفوظ : لقد كنت في جهل عظيم ، حين كنت أعتقد أنَّ الشمس إذا غابت بالليل تختفي تحت الأرض ، لتُنبت النبات ، لأنني كنت ألاحظ عند الصباح أنَّ بعض النباتات الصغيرة قد نمتْ بالليل .

صالح : الشمس ، والقمر ، والمطر ، والأرض ، كلُّها من مخلوقات الله سخَّرها لخلقه ، وجعل لها نظاماً وقوانين. ومقادير .

فالشمس والماء والتربة مع البذرة ، تُنبت الزَّرع بإذن الله . الله هو الذي يُسخِّرها . . وكما جعل الله نزول المطر بمقدار ، جعل ـ كذلك ـ حرارة الشمس بمقدار ، لا يقتلُ النباتَ ،ولا يضره ؛ فهو قدْ جعلَ كلَّ شيءٍ بمقدار .

محفوظ : هل يُشرف الله على كلِّ شيء . . . ؟

صالح : إنَّ كلَّ ما يحدث ، من نبتِ نبات أو ولادةِ مخلوقٍ أو موته ، أو أيِّ أمر آخر صغيرٍ أو كبيرٍ ، إنما هوَ مُسطَّرٌ ، ومكتوب عند الله ، قبل أن يحدث ، بل قبل أن يخلق الله المخلوقات جميعاً ، الله أرادَ ، وقدَّرَ وأمرَ بأن يكون كلٌّ هذا فكان . . حسب مشيئته ، وليس هناك جديدٌ . .

فما يحدث جميعه الآن ، وفي كل لحظة ، وفي كلِّ لمحةٍ ، إنما هو في علم الله قبل حدوثه . . فالله محيطٌ

بكل معلوم ، ولا يحدث شيء من غير إرادته ، ولا تخفى عليه خافيةٌ ، ولا تعزُب عنه مثقالُ ذرة ، في السموات ، ولا في الأرض ، بل قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً ، وأحصى كلّ شيءٍ عدداً .

محفوظ : إذن فكلُّ شيء منظمٌ مرتبٌ . . . ؟

صالح : نعم ، فالماء ينزل على الأرض فيجد البذرة في التُّربة الصّالحة ، فينبتُ النباتُ . . .

ولكن من ساق الماء إلى الأرض ؟ ومن أنزل من السماء ماءً ليُخرج به كل هذا النبات المنوّع الجميل وتلك الثمارَ الحلوة الطيبة ؟ إنّه الله ، يا عبد الله ...

محفوظ : أنت تدعوني عبد الله . . فما معنى عبد الله ؟

صالح : أنت عبد الله ، يعني مملوك لله ، الله هو الذي خلقك ، وأوجدك ، ولم تكن موجوداً ، وهو الذي يميتُك ، متى شاءَ ، وهو يسلّط عليك المرض إذا شاءَ ، وهو الذي خلق لك الطعام فأطعمك ، وخلق لك الماءَ فسقاكَ ، وهو الذي يشفيك إذا مرضتَ ، ويجعل لك أبناءَ إذا شاء ، أو يجعلك لا تُنجب . . وهو يحفظك بالليل وأنت نائم . . ويكلأك ويرزقك بالنّهار . . .

محفوظ : هذا الذي يفعل لي كلّ هذا ، هو مالكي .. وسيّدي ..

صالح : إذن ، فأنت عبده .. أنت عبد الله ، وأنا عبده وكلّ مخلوق هو عبد الله . . .

محفوظ : إن ما سمعته منك اليوم لم أسمعه منك من قبل ، فقد كنا نتحدث عن الأكل والشجر والغزلان وغيرها وكنت أخفي عنك خوفي من الشمس ، وكنتُ أخشى منها أن تسقط في أي يوم فتحرق النبات ، كما كنتُ أعتقد ، وتقتلنا ، ولكني الآن، وبعد أن عرفت حقيقة الشمس ، والرعد ، والصواعق ، فقد اطمأن قلبي ، ولن أخشى شيئاً منها ، ما دام هناك إلهٌ اسمه الله ، قويٌّ رحيمٌ مدبِّرٌ يقبض عليها جميعاً، ويحرِّكها كيف يشاء .

صالح : تلك من فوائد الإيمان بالله ، ألاَّ تخشى غيره . . ولا تخاف من مخلوق ، أو تحذر سوى الله .

محفوظ : ولكن من علّمك هذا . . . ؟ ومن دلّك على الله ؟ يا أخي ؟

صالح : لقد أرسل الله رسولاً للناس جميعاً ، يدعوهم ويعرِّفهم بالله ، ويطلب منهم الإيمان به . . .

محفوظ : الله أرسل رسولا ! من السّماء . . ؟ أمْ من باطن الأرض . . . ؟

صالح : لا . . بل هو إنسان . . ؛ رجلٌ من الرجال ، ولكنّه أفضل الرِّجال ، كان معروفاً بين الناس منذ طفولته بالأخلاق الطيبة ؛ بالصِّدق ، والأمانة حتّى أنّهم كانوا يُسمُّونه الصَّادق الأمينَ ، وعندما بلغَ عُمرُه أربعين عاماً ، كلّفه الله بتبليغ الناس بأمر الله . .

محفوظ : وما هو أمرُ الله . . ؟

صالح : أن يعبدوا الله وحده ، ويؤمنوا به ، وهو كفيلٌ – بعد ذلك – بأن يهديهم لكل أمرٍ يُصلح حياتهم . .

محفوظ : كيف يهديهم ؟

صالح : ينزِّل على هذا الرسول قرآناً . . .

وقاطعه (محفوظ) قائلا :

– قرآناً . . ؟ ما معنى هذه الكلمة . . ؟

صالح : القرآنُ هو كلامُ الله ، أنزله على هذا الرسول الكريم . . الصَّادق الأمين ، ليبلِّغه للنَّاس ، وليشرح لهم ، ويبين لهم معاني هذا القرآن . . .

محفوظ : وهل تعرف شيئاً من هذا القرآن . . ؟

صالح : أحفظُ كلَّ القرآن – بفضل الله – وأحفظ كثيراً من كلام الرَّسول ، وما تحدَّث به من حديث .

عند ذلك ازداد (محفوظ) قُرباً من صالح ، وقال له :

– هل يمكنٍ أن تذكر لي شيئاً من هذا القرآن ، كلام الله – يا سيدي . ؟

صالح : سأتلو عليك شيئاً من القرآن ، فحاول أن تفهم معانيه . . إسمع – يا عبد الله – يقولُ الله تعالى للناس :

« إنَّ اللهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتاء ذِي

القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون » .

ويقول أيضاً :

« اللهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم لاَ تَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ، لَهُ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ ، مَنْ ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ ».

محفوظ : هذا الكلامُ يختلف عن كلامك الذي تتكلمُ به معي منذ أن التقينا .

صالح : لأنه كلام الله كما أفهمتك . .

محفوظ : ولكن كيف فَهِمَ الناس أن الله خالق كل هذه الأشياء . . ؟

صالح : بعض الناس كانوا ـ مثلك ـ يرون كل الأشياء من حولهم ، الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والشجر وكيف تسير الأمور في الحياة ، من موتٍ وحياةٍ . . كيف يُولدون ، وكيف يموتون ، وغيرِ ذلكَ ، ولكنهم كانوا في حاجةٍ إلى من يُنبه عقولهم ، ويجعلهم يفكرون في منّ خلق كل هذا ، ومن يتحكم فيهم ، وفي شئونهم .

محفوظ : تماماً ، كما نبهتني أنت ، وعلمتني اليوم .

صالح : تماماً ، أنا أنقل لك هذا العلم ، كما علم رسول الله الرجال الذين كانوا معه ، وهم علموه لمن جاء بعدهم ، إلى أن وصل إليّ هذا العلم ، وأنا أُعلمك إياه اليوم .

أما الرسول فقد تلقاه من الله ، فالله بين للناس كيف خلق الكون ، وكيف يسيره .

محفوظ : بين هذا بكلام منه ؟

صالح : نعم ، الله أنزل القرآن ، وبين فيه كل شيء .

محفوظ : ماذا قال الله عن الكون والخَلْقِ ، والشمس والقمر ؟

صالح : قال الله عنها كل شيء ، وسأذكر لك منه القليل . . وستتعلم في المستقبل — إن شاء الله — الكثير .

محفوظ : هيا قل لي . .

صالح : يقول الله تعالى :

« وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ » .

ويقــول :

« اللهُ خَالِقُ كلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

ويقــول :

« وَاللهُ الذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ، فَتُثِيرُ سَحَاباً

فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فأحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا » .

ويقـــول :

« يُولِجُ اللّيْلَ في النّهَارِ وَيُولِجُ النّهَارَ في اللّيْلِ ، وسَخّرَ الشّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ والّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ».

ويقول تعالى :

« ومن آياتِهِ أنّكَ تَرَى الأرْضَ خَاشِعَةً فإذَا أنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إنّ الذي أحيَاهَا لمحْيِي المَوْتَى إنّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

محفوظ : ومن كانوا يدعون من دونه . . ؟ هل كانوا يدعونَ الله آخرَ . . ؟

صالح : ليس في الكون غير الله ، إلهٌ واحدٌ ، هو الأحدُ الصَّمَدُ الذي لم يَلِدْ ، ولَمْ يُولدْ ، ولمْ يكُنْ له كُفُواً أحدْ ، ولا مثيلٌ ولا شبيهٌ .

محفوظ : إذن من هذا الآخر الذي كانوا يعبدونه ؟

صالح : إنهم حينما كانوا يعبدون غير الله ، كانوا يعبدون أشياء دون الله الواحد ، ويخافون منها .

ضحك (محفوظ) ، وهو يقول :

– هل كانوا يخافون الشمس والرعد مثلي ؟

صالح : بل كانوا يعبدون أشياء أُخرى ، ويخافونها .

محفوظ : هل كانت تخلق الأشياء مثل الله ؟ وتُنزِّل المطر ؟ وتُنبت النبات ؟

صالح : لم تكن تفعل شيئاً من هذا ، ولا ذاك ؛ لأنها كانت تماثيل ، يصنعونها بأيديهم ، من الخشب والطين وغيرها . .

محفوظ : إذن فقد كانوا مثل ما كنت أنا ، لا يعلمون شيئاً ، ولكن لا بد أنهم تركوا كل هذا ، وعرفوا حقيقة الله الخالق حينما بين لهم الرسول الحقيقة .

صالح : لا – يا أخي – بل كذبوه . .

وبدا العجب على وجه (محفوظ) ، وهو يقول :

– كيف يكذبونه ، وهو لم يكذب عليهم قبل ذلك . . ؟ ألم تقل إنهم كانوا يسمونه الصادق الأمين ؟ وإنه عاش بينهم حتى بلغ أربعين سنة ، لم يعرفوا عنه سوى الصدق وحسن الخُلُق والأمانة . . ؟

صالح : نعم ، ولكنه حينما دعاهم لعبادة الله كذبوه في أول الأمر ، وصدقه عدد قليل منهم . . فصبر الرسول الكريم عليهم ، وأخذ يعظهم ويجادلهم ،

ويتلو عليهم القرآن ، ويجعلهم يتفكرون في ما خلق الله من حولهم من مخلوقات فكانت تؤمن كل يوم مجموعة منهم .

قال (محفوظ) :

حدثني عن هذا الرسول ، ومن كان معه من الناس ، ومن صدقه ، ومن كذبه ، حدثني عن القرآن .

كان هذا الطلب من (محفوظ) ، هو المُنطلق الرَّحبُ للشيخ صالح ، ليوضح له حقيقة دين الله .

وكان صالح رجلا عالماً بأمر دينه ، يحفظ القرآن ، دارساً للفقه ، حافظاً للحديث ، وكان يعلم من أمر الصحابة والتابعين ، وسيرة الصالحين الشيء الكثير ، فقضى أياماً بل أسابيع عديدة يحكي لمحفوظ ، ويتلو عليه القرآن ، حتى استيقنت نفسُ (محفوظ) دين الله ، **الإسلام** ، وعَلِمَ بأمر الأجر ، والثوابَ والعقاب ، وحفظ شيئاً من القرآن ، وفَهِمَ بعض الحديث .

عند ذلك ، قام صالح بتعليمه العبادات ، بعد أن شرح له أركان الإسلام الخمسة .

ولقد كان أسعد يوم في حياة الشيخ صالح على الإطلاق ، يوم أن نطق (محفوظ) بلسانه ومن قلب مؤمن – بالشهادة ، وبعد أن بين له صالح كيف يغتسل ويتوضأ .

وما إن نطق (محفوظ) بـ (أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد

أن محمداً رسول الله) ، حتى أخذ صالح في تعليمه الصلاة ، وكيف تؤدى ،والفرض منها ، والنافلة .

ووجد الإسلام ؛ دين الفطرة والخير من نفس (محفوظ) الصافية ، الطاهرة ، خير مكان .

ومضى الزمن — بعد ذلك — فكان (محفوظ) يزداد في كل يوم معرفة بالله ، وقرباً منه ، حتى انقطع — تقريباً — للعبادة ، ووهبها كل وقته ، إلا ساعات قليلة ، كان يقضيها بقرب صالح ، يستفتيه ، ويسأله عن بعض الأمور التي لا يعرفها ، ويعتذر لصالح في بعض الأحيان ، إذا ما طالت غيبته عنه ، بقوله :

— إني أحاول — يا سيدي — أن أعوِّض ما فاتني من سنين قضيتها وأنا في جهل تام بخالقي ورازقي .

الإمتحـــان

في ذات يوم ، كان الشيخ صالح يجلس عند ظل شجرة كبيرة ، وكان يراقب محفوظاً وهو يقوم بمداواة غزالة من القطيع ، يضمد جرحاً بساقها ، وهو يربت — بين الحين والحين — على ظهرها ، وقد بدا على وجهه الاطمئنان والرضا .

قال صالح في نفسه :

ما أسعد هذا الشاب : ما أسعده بحياته هذي الخالية من كل خطيئة ، أو سيئة ، ما أسعده إذ لم ينشأ بين البشر من بني آدم ، فيتعلم خصالهم ومعظمها ذميم ، إنه — إلى اليوم — لم يكذب ، أو يخدع ، أو يغش لم يظلم فتظلم نفسه ، ولم يُظلم فيحقد ؛ ما أسعده ، وما أهنأه بالإيمان .

أخذ صالح يُفكر في هذا ، ويفكر في أن (محفوظاً) قبل

إيمانه بالله ، كان يبحث عن ربه ، فوجد آياته وآثاره في مخلوقاته ، فخشي تلك القوة التي تبدت له في الشمس ، والرعد ، والصواعق ، فلما علِمَ بخالق تلك القوة ، ومُسخرها ، كان من السهل عليه أن تتقبل فطرته السليمة ، وعقله النقيُّ ، وقلبه الصافي حقيقة الله خالق الكون الواحد الأحد ، وأن يقبل فكرُهُ — بعد أن ربط بين ما رأى وشهِدَ من مظاهر الكون ، وما سَمِعَ من (صالح) المُسلم — منطق الحق الواضح ، خلقٌ وخالقٌ ، وجودٌ ومُوجِدٌ ، حركةٌ ومُحركٌ ، موتٌ وحياةٌ ، نشأةٌ وعدمٌ ، وعدمٌ ونشأةٌ ، فـ (محفوظ) قد صُقلت فطرته ، وعُبِّئت ، حتى إذا ما علِمَ بحقيقة الله ، والإيمان ، وافق ذلك تلك الفطرة السليمة ، وأشعل فيها جذوةَ الإيمان ، وعزا الكون كله إلى إله واحد أحدٍ ، قابضٍ على كل الكون ، قويٍّ ، بيده مقاليد كلِّ شيء .

إنه — بهذا — خيرٌ من مشركي قريش ، إذ لم تتلوث نفسه ، بما تلوثت به نفوسهم ، من مجانبة لمنطق العقل ، فهو لم يعبد صنماً ، ولا أقام وثناً ، ولا أنكر دعوة الإيمان ، حينما عرضتُها عليه ، بل تقبلها عقله السليم ، على الفور ، واستيقنتها نفسه الطاهرة النقية .

ولكن هل يكفيه إيماناً أن يعرف بوجود الله فحسب .

وتذكر صالح قول الله تبارك وتعالى : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ » عندها أخذَ صالح يفكر ، ويردد في نفسه :

— إن هذا الشاب الصالح ، وقد مضى عليه عامان —تقريباً—

منذ أن عرف حقيقة الإسلام ، والإيمان لا يغفل لحظة عن مراقبة الله ، ولا يكلُّ لسانه عن ذكر ربه ، والتسبيح له .

ولكنه ، وهو في هذا الوادي ، قد أمِنَ من شرور الدنيا ، وغوائل الأيام ، وبَعُدَ عن التعرض لما يُبتلى به المؤمنون ، طالما أنه بعيدٌ عن معركة الحياة ، لم يُجرب صروفَها ، مِنْ فقد عزيز ، ولا إخاله عرف الجوع يوماً ، أو جرب الفقر والحرمان ، أو الإغراء ، لم يُبتلْ بالناس ، بأشرارهم ، من كذابين ، ومنافقين وغشاشين ، وجاحدين ، وخداعين ، ولصوص وغيرهم من مرضى النفوس .

لا بد له من الاختلاط بالبشر ، والعيش معهم ففي معركة طلب الرزق بينهم يتعرض للظلم ، والإغراء ، والجوع ، ونقص الأموال ، وفي حرصه على بقائه ، وبقاء أبنائه ، ومن يقوم بإعالتهم ، يصيبه الخوف من أن يُظلم ، أو يُجحفَ ، أو يُؤذى ، أو يعذب أو يُحرم .

وهنا اختبار لخُلُقه ، وقوة إيمانه . .

لابد أن توضع الدنيا أمامه ، بنعيمها ، وزخرفها ، وإغرائها ، ولا بد أن يكون له فيها ما يحرص عليه ، ويخشى فقده ، هناك يختار بين الطريقين ، أيهما يسلك ، هل يتبع زينتها من مال وبنين ، ويتبع شهوات نفسه ، أم يظل يخاف مقام ربه ، وينهى نفسه عن هواها .

إذن . . لا بد أن يعيش بين الناس ، يعمل ، وينافس ، ينشيء أسرةً ، وينجب الأبناء والبنات ، وهنا امتحان واختبار . .

هل يُلهيه هذا عن مراقبة الله وذكره ، وهو في سبيل البحث عن الرزق لهم ، وإعالتهم ، وتنشئتهم وينسى تحذير رب العباد « يا أَيهَا الّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُم أَمْوَالُكم ولا أَوْلادُكم عَنْ ذِكْرِ الله » .

وإذا مات الولد ، هل يُسلِّم الأمر لله . . فهو الذي أعطى ، وهو الذي أخذ ، ويقول حينئذ « إنّا لله وإنّا إليْهِ رَاجعُون ». بل يقولها كلما أصابته مصيبة ، أو ألمّت به كارثة ، فيلتجيء بهذا لله وحده .

هذا ما يجب أن يكون عليه المؤمن الحق ، لا يعتمد إلا على الله حينما تهتز حياته ، ولا يلجأ إلا إلى الله عندما تضيق به الدنيا ، يُسلم الأمر كله لله ، فالله هو المبدأ ، وهو المُنتهى ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، لا ملجأ ولا مَنجى منه إلا إليه ، ولا مشيئة إلا مشيئته « ومَا تَشَاءُونَ إلاّ أَنْ يَشَاءَ الله » .

لا بد لهذا الشاب أن يترك عزلته في هذا الوادي ، إذ بهذا فقط تُختبر قوة إيمانه بالله ، بعد أن عرفه .

وباختلاطه بالناس ، تتكشف له مقدراته وحقيقة شخصيته ، فهو إنسان كرمه الله بالعقل ، وسخر له كل ما في الكون جميعاً منه ، فلعله في حياته بين البشر ، تتبين له صلابته ، وقدرته على الخير ، والعطاء ، على الرغم من كل ما يُحيط به من إغراء يدفعه إلى الشحّ ، وسلوك سبيل الشيطان .

بعد أن فرغ (محفوظ) من مداواة الغزالة ومعالجة جُرْحها ، جاء إلى جوار الشيخ صالح ، وجلس بالقرب منه ، وقال له :

ـــ الحمد لله فإن جُرح الغزالة لم يكن كبيراً . .

وصمت (محفوظ) ، ومضت لحظات ، كان يتوقع أن يقول صالح فيها شيئاً ، أو يُعلق على حديثه ، فلما لم يحدث هذا ، نظر إليه (محفوظ) ، فوجده ساهماً يفكر ، فقال له :

— فيم تفكر يا صالح . . ؟

وتنبه صالح على سؤال (محفوظ) ، فتبسم ، ووضع يده على كتف (محفوظ) ، وقال له :

— هناك أمر أود التحدث إليك فيه .

محفوظ : قل يا أخي . . فأنا مُصغٍ إليك . .

صالح : لقد أنعم الله عليك يا عبد الله بمعرفته ، وبالإيمان به ، فأنت تعبده ، وتتقرب إليه ليل نهار ، فعسى أن يقبل منك ، ويرحمنا ، ويرحمك .

قال محفوظ : آمين . .

ومضت فترة صمت أُخرى ، ولكن (محفوظاً) قطعها بقوله :

محفوظ : ما الذي تود قوله لي — يا سيدي — ؟ وفيم كنت تفكر . . ؟

صالح : كنت أفكر في عودتي ، وعودتك إلى حيث نجتمع بالناس من بني البشر ، فقد طال الغياب . .

محفوظ : لعلك سئمت البقاء هنا في هذا الوادي ، فلك أن أن تعود متى ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، وقد أستطيع أن أُعينك ، وأُساعدك في صنع الشيء الذي اسمه

المركب ، إذا علمتني كيف يُصنع .

صالح : إنني لم أسأم البقاء معك يا أخي ، فأنت نِعمَ الشاب الطيب الصالح ، النقي ، فأنا لن أُفارقكَ بإذن الله ، إذ أنني أرغب في عودتك أنت – أيضاً – إلى أهلك أهلك من بني الإنسان ، وترك هذا المكان ، بل يجب يا أخي أن تعيش بينهم .

محفوظ : أتعني أنني يجب أن أذهب إلى هناك ، إلى ما وراء البحر والجبال ، إلى مجتمع الناس ؟!!!

صالح : نعم ، بإذن الله .

محفوظ : أأرحل إلى أرض الناس من بني البشر ؟

صالح : نعم ، على الرغم من أنني أعلم أنك تفضّل البقاء هنا في هذا الوادي الأخضر ، تتفرغ للعبادة ، وتعيش بين غزلانك التي تُحبها وتُحبك .

وسرح (محفوظ) بفكره وقتاً طويلا ، ثم قال :

محفوظ : إنك لا تدري – يا سيدي – بمقدار تشوقي لرؤية الناس ، ورغبتي في معرفتهم ، والاختلاط بهم ، بعد أن تكشفت لي حقيقتي ، وبعد أن علمت منك أن هناك الألوف الألوف ممن هم في مثل شكلي ، وكم أتمنى أن أراهم جميعاً ، بمختلف أشكالهم ، وأحجامهم ، وباختلاف ألوانهم ، وأجناسهم ؛ أرى طفل الإنسان ، وأنثى الإنسان ، ومولود الإنسان ، بعد أن قضيت كل حياتي هنا ، بين

الغزلان ولا علم لي بوجود مخلوق يشبهني ويماثلني ، إنك بعد أن قصصت على القصص الكثيرة عنهم ، أثار كل هذا الرغبة في نفسي لرؤيتهم ، وتقت للعيش بينهم ، وقد شجعني في باديء الأمر تعرفي عليك ، وما لمسته فيك من عطف ، وود صادق ، وما تعلمته منك من كلمات ، حتى أصبحت أتكلم لغة ، وأنطق بألفاظ بعد أن كنت أهمهم كالحيوان الأعجم .

نقد صبرت على تعليمي حتى أصبحت أتحدث بهذه الطلاقة ، وقد منّ الله عليّ بنعمة الإيمان به ، والإسلام له ، على يديك ، فعرفتني بحقيقة الخالق ، الأحد ، الصمد ، وعلمتني من القرآن آيات ، حتى حفظتها ، وما كان ينبغي لي ذلك ، لولا أن هيأ لي الله تعالى حضورك إلى هذا المكان ، علمني الله الصلاة على يديك ، وبعض ما فرضه الله علينا من فروض واجبة الأداء .

ولقد ابتعدت عن القطيع ؛ عن الغزلان ، بعد أن كنت أعيش بينها ، وأنا أعتقد أني واحدٌ منها ، ابتعدت عن القطيع ، بعد أن عرفت حقيقة إنسانيتي وحقيقة ذات الله المُوجِد ، خالق الكون ، الحيّ القيوم .

لقد حبّبت البشر إليّ يا أخي صالح ، وجعلت نفسي تشتاق وتتوق للاختلاط بهم ، غير أني – يا أخي – أخشى هذا . .

صالح : ماذا تخشى يا عبد الله . . ؟

محفوظ : أخشى البشر ، أخشى مخلوقات تجحد الله الخالق ، الله الذي أحسن كل شيء خلقه ، ثم خصّهم بأحسن خلق من التركيب الجسماني ، وأحسن التقويم الفطري ، كرم الإنسان على سائر المخلوقات بالعقل ، وبهاتين اليدين ، وهذا اللسان ، هذا العقل الذي يهتدي به الإنسان لخالقه ورازقه ، المنعم عليه في كل لحظة ، وهاتين اليدين اللتين يفعل الإنسان بهما المعجزات من الأعمال مما لا تستطيعه الغزلان والطيور وغيرها من الحيوان ، وهذا اللسان الذي أنطق به الآن وأعبر به عن ذاتي ، وعن رغباتي ، وأسبّح به ربي ، وأحمدُه .

يكفيني من ربي فضلا أن أرسلك لتعلمني كيف أنطق وكيف أفهم مدلولات ما أسمع منك ، والفضل كله لله الذي أبدع فيَّ هذا العقل المُدهش الذي خص به الإنسان ، فهلا أشكره بعد ذلك ؟ هلا أطلقت هذا العقل في التفكير فيه — سبحانه — وفي مخلوقاته ، ولساني هذا الذي كان معطلا فنطق بفضل الله ، هلا أطلقه بالتسبيح لخالقه ، بحمده ، وشكره ، بل كل هذا الجسد البديع التركيب ، هلا سخرته للصلاة وعبادة خالقه ، ومبدعه ؟

ألا يكفي الإنسان ، كل هذا لكي يذلَّ لله ويعبده ويُخاص له ؟

ولكنني أرى من الناس غير ذلك ، وقد قصصت أنت عليَّ عنهم القصص ، وصورت لي فعالهم ، من أنهم يعصون الله ربهم ، فكيف تُرى يعاملون بعضهم بعضاً . . ؟ وكيف يعاملونني أنا إذا اختلطت بهم ، وعشت بينهم . . ؟ إنهم يظلمون أنفسهم بجحدهم فضل ربهم وبعصيانهم له ؛ فحقيقٌ بهم أن يظلموا بعضهم بعضاً .

قال صالح :

– إن من البشر من هو صالحٌ تقيٌّ خَيِّرٌ ، منهم من هو أرفع درجة من الملائكة عند الله ، ومنهم من يغبطهم الأنبياء والمرسلون ، كما حدَّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أن منهم الكافر ، والظالم ، والشرير ، ولكن لا بد لك أن تختلط بهم جميعاً . . نعم ، لا بد أن تختلط بالبشر ، وتحتك بالصالح والطالح من الناس ، وتحيا حياتهم ، حتى تختبر قوة إيمانك ، ورسوخ عقيدتك ، لا بد من الامتحان ، والبلاء ، فالإسلام ليس كباقي الأديان ، يختص فيه الفرد بنفسه فحسب ، الإسلام ليس فيه صومعة يبنيها المُسلم على رأس جبل ، أو في وادٍ سحيق ، أو عند سفوح التلال فيعيش فيها ، ويقضي بها عمرَه يتعبد ، ولكن الإسلام دين الجماعة ، ودين الدعوة ، ودين الأمر بين الناس بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، بكل الوسائل . . الإسلام دين مجتمع ، وجماعة ، يلزمُ فيه الفرد بالجماعة ، ويُجزى بقدر ما يقدم للمجموعة ، بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق ، إلى شهادة ألا إله إلاّ الله ، ثم حمل السلاح والجهاد في سبيلها .

الفرد المُسلم مسئول أمام الله عن الجار ، وعن الإبن ، وعن الوالدين ، وعن أصدقاء الوالدين ، وعمن يشترى منهم ، ومن يبيع لهم ، ومن يتعامل معهم ، عن الشيوخ ، والأطفال ، والنساء ، عن البر بالزوجة ، وبأهل الزوجة ، وبالبشر جميعهم من حوله .

المُسلم مطالب بأن يُحب للآخرين ما يحب لنفسه ، فإذا وصل إلى هذه المرتبة فلن يضُرّ أحداً أو يؤذيه لأنه لا يُحب الضرر والأذى لنفسه .

يا أخي عبد الله ، لا بد لك أن تلتحم بالناس ، وتعيش الحياة سويةً معهم ، تؤدي تكاليف العقيدة ، وتربى نفسك بالبلاء ، ويمتحن الله بذلك عزيمتها ، وتصميمها على الثبات ، على الإيمان ، والحق . . مهما كانت الشدائد والمخاوف ، وعلى الرغم من ما يعترضك من مصائب الدنيا .

فالله سبحانه وتعالى يقول :

« ولنبلُونّكم بشيْءٍ منَ الخوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ منَ الأموَالِ وَالأنفُسِ وَالثمرَاتِ وبَشِّرِ الصَّابرِينَ ، الّذينَ إذَا أَصَابَتهم مصيبَةٌ قالُوا إنّا لله وَإنّا إليْهِ رَاجِعُون ».

مضت الأيام ، وصالح لايزل يُحدّث محفوظاً عن ضرورة تركه الوادي ، ووجوب رحيله إلى حيث يعيش بين البشر من بني جنسه .

وكان (محفوظ) ، يقلّبُ الأمر في ذهنه ، ويكاد يوافق في بعض الأحيان ، ولكن الخوف من المجهول ، وما كان

يكتنف المسألة من غموض ، كانا يحجبان الحقيقة عن عقله ، ويشلان فكره عن الوصول للصواب ، والاختيار بين الأمرين ؛ أمر بقائه في الوادي الأخضر ، حيث نشأ بين غزلانه ، وترعرع بين مُروجه ووهاده ، لم يمَلّه يوماً ، أو يزهد في العيش فيه ، بل ما زال إلى ساعته الراهنة مقتنعاً بحياته تلك بين جنباته ، وببقائه فيه .

وبين الأمر الآخر ، وهو اقتحام عالم مجهول ، هو أولا وأخيراً لا يشتاق إليه لأنه لم يكن قد عاش فيه قبل ذلك ، ثم إنه لا يشده إليه حنين ، ولا تربطه به رابطةٌ ، ولا بينها آصرةُ قُربى ، ولا وشيجةُ صداقةٍ ، ولا حتى مجرد معرفةٍ بهم .

أجل ، قد حدثه الشيخ صالح عن حياة البشر وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وصور له كل شيء فيهم ، وقص عليه الكثير من القصص عنهم ، حتى كاد يحس أنه يعيش بينهم ، ولكن كان يصحب إحساسه هذا – دائماً – إحساسٌ خفيٌّ بالخوف منهم ، من طباعهم ، وما يمتزج بحياتهم ، من خير يتمثل في صلاح الصالحين منهم ، وشر يتبدى عند بعضهم في الكفر ، والجحود ، والظلم ، والعدوان ، والقتل بغير الحق ، والأذى .

كان (محفوظ) يجلس الساعات الطوال ، يفكر في كل هذا ، فيحار ، أيترك هذه الحياة الوادعة الآمنة ليلقي بنفسه في أُتون مجتمع البشر ، أم يمضي في ما اعتاد من حياةٍ ؟

وتمر بذهنه صورة الشيخ صالح ، فتحدثه نفسه ، لتقول له :

– هو ذا أحدُ بني الإنسان ، كان له – بعد الله – الفضل في إرشادي إلى طريق الإيمان ، ومعرفة الحق جلّ جلاله ،

وفضل تعريفي بحقيقتي الإنسانية ، علمني هذا الكلام والنطق ، الذي أعبر به عن ذاتي ، والألفاظ التي أفهم بها كلام الله ، وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، أفلا يجعلني كل هذا الفضل من هذا الرجل أن أحب الناس في شخصه . . ولكنه يرجع فيقول :

– يكفيني من الناس صالح ، ومعرفتي به ، فلا أجازف بالاختلاط بغيره من الناس ، ممن حدثني هو عنهم ، وعن خُلُقهم السيء ، وعاداتهم القبيحة .

ثم تعود نفس (محفوظ) الخيِّرةُ توحي إليه قائلة : ولكن إذا كان في ذهابي إلى مجتمع الناس إرضاء لخاطر معلمي صالح ، فلا أقل من أن أقدم على ذلك رداً لفضله عليّ وتقديراً لإحسانه ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

كانت لحظة من أسعد اللحظات في حياة الشيخ صالح ، تلك اللحظة التي جاء فيها (محفوظ) ، وجلس إلى جواره ، وقال له :

– لقد شاورت عقلي ، ثم استخرت الله ، فوجدت أن الرحيل معك – أيها الرجل الصالح الطيب – أفضل لي .

ولم يكن (محفوظ) إلى تلك اللحظة ، قد سأل الشيخ صالح عن الوسيلة التي سينتقلون بها ويسافرون بها إلى حيث يعيش بقية الناس .

ولكن قبل أن يتوجه (محفوظ) بالسؤال لصالح ، قال له صالح :

– شكراً لك يا عبد الله على قبولك بأمر الرحيل ، فأنت فتى طيب الخُلُق ، راجح العقل ، وإني لأعلم بما تعاني من مجرد أن يخطر بذهنك أمر ترك هذا الوادي ، الذي نشأت فيه ، ومفارقة تلك الغزلان التي عشت بينها ، وأعلم – أيضاً – مدى خشيتك من مخالطة البشر ، ومن العيش في مجتمعهم ، ولكن اعلم أن هذا أمرٌ لا بد منه كما بينت لك قبل ذلك ، وما علينا الآن إلا أن نفكر في الوسيلة التي نخرج بها من هذه العزلة ، ونصل بها إلى أرض البشر بإذن الله سالمين .

وصمت صالح قليلا ، ثم قال :

– ليس هناك من طريق للخروج ، غير الذي جئت أنا منه . . البحر . . نعم . . ليس من سبيل إلى خروجنا من هذا المكان إلا البحر . .

محفوظ : البحر ..؟!! ولكن كيف يتم لنا هذا . . ؟

صالح : ليس هناك غير أن نقوم ببناء سفينة من الخشب ، نركب عليها ، وندعو الله أن يحفظنا من العواصف وويلات البحر ، وأخطاره .

محفوظ : ولكن . . إلى أين نتجه ؟

صالح : لست أدري ، فالهدف هو بلدي حيث أهلي وولدي ، ولكن في أي اتجاه هي من هذا البحر المحيط ؟ هذا ما لا علمَ لي به ، فعلينا أن نستخير الله ، ثم نمضي في سفرنا ، فإما بلغناها بإذن الله أو بلغنا بلداً آخر من بلاد الله المنتشرة في الأرض .

قال (محفوظ) ، وهو ينهض :

– كل أمر مقدر يا أخي « وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً » .

* * *

عند العصر جلس صالح و (محفوظ) على الأرض ، وكان صالح يحمل بين أصابعه عوداً صغيراً ، يخطط به على الأرض شكلا لمركب ، وكان من أصعب الأمور عليه أن يوضح لمحفوظ هيئة المركب ويبين له تفاصيل أجزائه ، فمحفوظ لم يشاهد في حياته مركباً ، كما أن خياله لم يعنْه على تصور شكل المركب ، غير أن الشيخ بذلك الرسم الذي خططه على الأرض ، مع الشرح لمحفوظ وتوضيح حجم كل جزء من المركب ووظيفته ، استطاع أن يقرب المسألة كثيراً من ذهن (محفوظ) .

العمل في صنع المركب

عند فجر اليوم التالي ، كان صالح و (محفوظ) في طريقهما إلى ساحل البحر ؛ سارا حتّى بلغا منطقة الصخور ، فصعداها ، واجتازا الكهف إلى الساحل ، .

وفي الطريق ، حكى صالح لـ (محفوظ) — لأول مرة — حكاية سفره ورحلته التي انتهت به إلى هذا المكان ، فقال إنه كان في رحلة مع بعض رفاقه من التجار على ظهر مركب ، فهبت عاصفة قوية عاتية ، وهاج البحر ، وعلت أمواجه ، وأخذت تعبث بالمركب ، وتتقاذفه ، وتحمله من مكان إلى مكان ، تعلو به تارة ، وتهبط أخرى .

وأخذ رفاقه يتساقطون ، الواحد بعد الآخر ، حتّى لم يبق إلا هو ، فألهمه الله أن يتشبث بسارية المركب ففعل .

ومضى بعد ذلك وقت طويل ، والبحر في هياجه والريح تعصف بالمركب ، و (صالح) على تلك الحال ، يتشبث بالسارية ، بكل ما آتاه الله من قوة ، ويدعو الله أن ينجيه .

وأخيراً ارتطم المركب بالساحل ، ارتطاماً هشمه تهشيماً ، أما صالح ، فلم يتنبه إلا على سقوطه على رمال الساحل ، بعد أن قذفت به قوة الارتطام بعيداً ، وراح في إغماءةٍ طويلةٍ ، لم يفق منها إلا على وجود (محفوظ) بجواره .

قال له (محفوظ) :

ـ لعل كل ما حدث لك ـ يا أخي ـ كان لحكمة ؛ فقد أراد لي الله سبحانه وتعالى ، أن ألتقي بك ، لأهتدي إلى طريق الإيمان ، فهيأ لك سبيل النجاة من الموت في البحر ، وهو على كل شيء قدير .

ومع الشعاعات الأولى من شمس الصباح كان صالح ، و (محفوظ) قد وصلا إلى الساحل ، وهما يحملان بعض كتل الخشب ، وفروع الأشجار ، التي تصلح جميعها لعمل المركب .

وبعد أن وضعاها على أرض الساحل ، عادا إلى الوادي مرة أُخرى ، فجلبا غيرها وغيرها ، حتى تجمّع لديهما من الخشب ما يكفي لصنع مركب كبير . ثم عادا في النهاية ، وكان الوقت قد قارب المساء ، فباتا في الوادي .

وبعد أن صليا الفجر معاً ـ في اليوم التالي ـ ، حملا بعض الفاكهة ، وأخذا معهما بعض الماء من النهر ـ في جرة كبيرة كان صالح قد صنعها من الطين ـ واتجها إلى ساحل البحر .

وبدأ العمل في المركب ، وكان الرجلان الصالحان يعملان في المركب ، وهما يدعوان الله أن يهيىء لهما به النجاة ، وأن يخرجا به من ذلك المكان الذي ليس فيه من بني الإنسان سواهما ، إلى دنيا البشر ، ذلك المكان الذي قضى فيه (صالح) ثلاث سنوات ، ما كان يطيق بقاءها لولا أن إيماناً قوياً ، ونفساً صافيةً ، وحباً في دين الله ، ورغبة قوية في إرضائه ومثوبته كانت تدفعه ليُعلّم (محفوظاً) أمور الدين ، وحقيقة الله الواحد الخالق الأحد الصمد .

أما (محفوظ) فقد مضت عليه من حيث لا يدري سبعة عشر عاماً ، وهو بين تلك الحيوانات الأعاجم ، لا يعرف غيرها عشيرة ، ولا أهلا ، ولا يعرف غير الوادي الأخضر دنيا ، ولا وطناً .

مضت الأيام والشهور ، وصالح و (محفوظ) ، يعملان في بناء المركب ، بكل همة ونشاط ، مستعينان بالله في كل خطوة ، ويذكرانه ، ويسبحان بحمده في كل لحظة وفي كل حين .

أما عملهما فقد كان شاقاً ، صعباً ، فالمركب يجب أن يكون كبيراً قوياً ليتحمل قوة اندفاع أمواج البحر ، وأعاصيره ، ورياحه وما يفاجىء به من يركبه من المسافرين ، سيما وأن رحلتهم غير محددة الوجهة ولا الاتجاه ، إلى أين ؟ وكم تستغرق من الزمن ؟ الله وحده يعلم .

وفي ذات يوم ، وقد شارف العمل في المركب على نهايته ، وبينما صالح منهمك في عمله ، إذ تنبّه على صوت محفوظ ، وهو يقول له مشيراً إلى جهة البحر :

– أنظر إلى هذا يا (صالح) . . .

ونظر صالح إلى حيث يشير (محفوظ) فإذا مركب كبير ضخمٌ ، يشق عُباب البحر .

قال صالح ، وبإيمانٍ قويٍّ ، وهو سعيد سعادة لم يستطع أن يخفيها :

– لا بدّ أن الله قد أرسل هذا المركب ، وأهله لإنقاذنا .

وترك صالح و (محفوظ) العمل في المركب واقتربا من

الساحل ، وأخذا يلوحان للمركب العابر ، وهما يصيحان بعض الصيحات العالية .

وفجأةً ، لاح رجل في أعلى المركب ، وأخذ يلوِّح لهما ، يرد على إشارتهما بعد أن شاهدهما على الساحل .

وخفف المركب من سرعته ودار حول محوره ، ثم اتجه نحو الساحل ، حيث يقف صالح و (محفوظ) وهما يحمدان الله ويشكران فضله .

وتوقف المركب على مسافة قصيرة من الساحل ، وألقى مراسيه ، ثم اصطفَّ ركابه عند حافته .

كان ركاب المركب خمسة من الرجال ، وقفوا إلى جوار بعضهم البعض ، وأخذوا ينظرون إلى صالح و (محفوظ) الواقفين على الساحل ، بتعجُّب زائد ، واندهاش .

أما صالح ، فقد كانت تتحرك شفتاه ، ويلهج لسانه بدون توقف ، بحمد الله على دنو ساعة النجاة ، وقرب موعد عودته بإذن الله إلى أهله ، وأبنائه ، وعشيرته .

وأما (محفوظ) ، فقد جحظت عيناه ، وكادتا أن تخرجان من محجريهما ، وهو يشاهد خمسة من الناس دفعة واحدة ، وهو الذي لم يكن قد شاهد إنساناً طوال حياته ، إلاَّ شخصاً واحداً ، رآه منذ عهد قريب ؛ . . هو صالح ، وكان يعتقد قبل رؤيته إيّاه أن ليس هناك في الوجود من يماثله هيئةً ، وشكلا ، وتكويناً .

ومضى (محفوظ) يطالع في وجوه الرجال الخمسة بحيرة

وتعجُّب واندهاش ، وبفضول من يرى الشيء لأول مرة ، ينقل بصره من الواحد منهم إلى الآخر ، ويمعنُ فيه النظر ،

أما الرجال الخمسة ، فقد تعجّبوا لوجود هذين الآدميين في ذلك المكان الموحش المنعزل عن العمران ، عند البحر في مكان قصيٍ من العالم ، بعيدٍ موغل في البعد . وهالهم — كذلك — منظرُهما ، وما هما عليه من هيئة زريّة ، فقد كان كل واحد منهما يرتدي أسمالاً بالية ، لا تكاد تستر إلا أجزاء يسيرة من البدن ، وقد طال شعرُ رأسيهما ، ولحيتاهما والشوارب ؛ حتى غطى الشعر كلّ الوجه تقريباً ، فأصبح لا تبدو منه إلاّ العينان ، وأجزاءٌ من الخدين يسيرةٌ ، طالت منهما أظافر اليدين والقدمين ؛ فأضفى كلّ ذلك على هيئتهما الكثير من التّوحُّش .

مضى وقت طويل على هذا الحال ؛ الرجال الخمسة على المركب ، لا يحرّكون ساكناً ، ولا يحوّلون أنظارهم عن صالح ورفيقه ، وصالح ورفيقه كأنما هما تمثالان وقد شلّت المفاجأة أقدامهما ، فظلا واقفين يحدقان في أصحاب المركب .

وأخذ صالح المتزن العقل ، يفكر في تلك اللحظة ، فقال في نفسه : لا بدّ أنّ هؤلاء الرجال قد أخذ منهم الفزع منّا مأخذاً . . . فحالُنا وهيئتنا قد تُلقي في روعهم أننا بدائيان متوحشان ، قد تُلحق بهم ضُرا إذا هم تركوا المركب ، ونزلوا إلينا على اليابسة ، وقد يدور بخلدهم أنّنا فردان من قبيلة متوحشة تسكن هذه البقاع ، وقد نستعدي عليهم بقية أفراد القبيلة — بظنّهم — فيتكاثرون عليهم فيقتلونهم ، أو يأسرونهم .

وألهم الله صالحاً ، الرجل المؤمن ، أمراً في تلك اللحظة ، وهداه إليه ، ذلك أنّ الله يتولى الصالحين .

« وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً » .

فكان المخرج من ذلك الموقف الحرج ، أن تقدّم صالح خطوات داخل الماء ، حتى أصبح أكثر قُرباً من أصحاب المركب ، وعندئذ صاح بصوتٍ قويٍّ ، واضح النبرات :

ـ السلام عليكم ـ أيُّها الرِّجال ـ ورحمة الله وبركاته .

وفي اللحظات التالية ، كان الرجال الخمسة قد تركوا المركب وقفزوا إلى الماء ، ثم خاضوا البحر عند الساحل ، حتى وصلوا إلى حيث كان يقف صالح ومحفوظ ، التفوا حولهما ، وأخذوا يسألونهما أسئلة متلاحقة :

ـ ما الذي أتى بكما إلى هذا المكان . . ؟

ـ متى جئتما . . . ؟

ـ وكم من الزمن قضيتما في هذا المكان المنعزل ؟

وتوالت الأسئلة على (صالح) و (محفوظ) من الرجال الخمسة ، فكانا يجيبان عليها إجابات صريحة ، إلاّ أمراً واحداً ، كان الرجلان قد تعاهدا على عدم البوح به ، أو الخوض فيه ، هو عدم ذكر ما يشير إلى نشأة (محفوظ) الأولى في الوادي الأخضر ؛ فقد رأى صالح ، الرجل العاقل ، الحريص ـ بما له من تجربة مع الناس ، ودراية بخُلقهم ، وما جُبل عليه بعضهم من رغبة مستعرة ، مستترة في إلحاق الأذى والتجريح بالآخرين والانتقاص من أقدارهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وما وجدوا إليه مدخلا ـ رأى صالح ألاّ ضرورة تُوجب ذكر ذلك الأمر ، فاتفق مع (محفوظ) على هذا ، وقطعا على نفسيهما العهد عليه .

كان صالح يجيب على كل سؤال يسأله إيّاه أحد الرجال الخمسة ، مما يتعلق بقصة مجيئه إلى ذلك المكان ، فيحكي لهم ما وقع له من أمور ، وأهوال في البحر ، وكيف حطّمت العاصفة — قبل عامين — مركبه ، وكيف قذف به البحر إلى الساحل ، يحكي كلّ هذا فلا يفهم منه أصحاب المركب الخمسة غير أن الأمر جميعه متعلق به هو ورفيقه (محفوظ) ، فلم يُضطرّ — لذلك — للكذب ، أو الغشّ ، ولم يضطرّ إلى ذكر ذكر شيء مما يتصل بحياة (محفوظ) السّابقة .

وفي نهاية الأمر ، طلب صالح من أصحاب المركب أن ينقلوهما إلى بلده ، بعد أن ذكر لهم اسمها . .

وأبدى الرجال دهشتهم وتعجُّبهم حين سماعهم اسم بلدة صالح ، إذ أن موقعها كان بعيداً جداً ، من ذلك المكان ، يقتضي الوصول إليه السفر شهوراً طويلة في البحر .

وبعد ساعات كان الجميع على ظهر المركب ؛ الرجال الخمسة وصالح ومحفوظ ، ورُفعت المراسي ، وتحركت السفينة بهم مبحرين ، **بسم الله مجراها ومرساها** .

مضت الأيام على ظهر المركب بمحفوظ وصالح ، رتيبة ، طويلة .

وكانت أكثرَ طولا ، وأشد رتابةً بالنسبة لصالح ، الذي كان يزداد كل يوم شوقاً لأهله ، كلما ازداد قرباً من بلده ، ولم يكن يُخفف من ذلك بالنسبة له إلاّ انقطاعه معظم الوقت للصلاة والعبادة ، واختلاءه بالله تعالى بعيداً عن بقية الرجال .

وبعد أن انقضت عشرة أيام من السفر المتواصل رسا المركب على الساحلِ ، وكانت تلك أول مدينة يصل إليها المركب ، بعد أن أقلّ الرجلين ، محفوظاً ورفيقه .

ووقف (محفوظ) عند حافة المركب ، ينظر إلى ذلك الحشد الكبير من بني البشر ، الذين لم ير مثلهم من قبل .

حشدٌ كبيرٌ من أهل تلك المدينة ، كانوا على الساحل في انتظار وصول المركب ، منهم الأطفال ، والنساء ، والشيوخ ، ذوو اللحي البيضاء ، كان فيهم الأبيض البشرة ، والأسود ، والأسمر . . . وحار (محفوظ) ، وكاد عقله – في باديء الأمر – يَزيغُ .

وتكرر هذا الأمر في كل مدينة يَرسو بها المركب ، حتّى اعتاد (محفوظ) – آخر الأمر – على رؤية النّاس ، فما عاد ذلك يُثير في نفسه عجباً ولا اندهاشاً .

وفي ذات مرة أغراه الشّيخ صالح – وكان يراقبه ، لا يغفل عنه ، يشرح له كلّ ما يُشكل عليه من أمور كان معظمها جديداً بالنسبة له – أغراه والسفينة ترسو عند ميناء إحدى المدن ، بأن ينزل إلى الأرض فيتحدث إلى الناس ، ويخالطهم .

وتردد (محفوظ) بعض الشيء ، واعتذر عن ذلك ، ولكن صالحاً ألحّ عليه ، مُعللا له ضرورة اختلاطه بالناس بأنها تُفيده متى ما بلغوا نهاية الرحلة ، وعاشوا هناك في مجتمع المدينة الكبير .

ومضى صالح يلحُّ على (محفوظ) ويغريه ، حتّى وافق (محفوظ) – في آخر الأمر – وانصاعَ لرأي صالح ، فنزل

إلى أرض الميناء ، واختلط بالناس ، وتحدّث إليهم ، ثم عاد إلى المركب - بعد ذلك - وهو سعيدٌ مسرورٌ .

وسأله صالح عن تجربته تلك - وهي الأولى - مع الناس ، فأجاب (محفوظ) والإرتياح بادٍ على مُحيّاه :

- لقد سعِدت بهم ، وأحسست وأنا بينهم بإنسانيّي ، وكوني من البشر ، وأن أكثر ما شاقني ، الحديث إلى الأطفال ، وسماع أصواتهم النديّة الناعمة ، ولو أني كنت مدفوعاً دائماً ، ميّالاً للتحدث إلى الشبان ممن هم في مثل سني .

وقطع حديث الصديقين صوت ربان المركب ، وهو يقول مخاطباً لهما :

- لقد بقي يومان فقط على الوصول إلى بلدكما - إن شاء اللهُ . . سالمين . .

في المدينــة

كان تقدير ربان المركب صحيحاً ، ومناسباً ، فما إنْ أشرقت شمسُ اليوم الثالث ، حتّى بدت عند الساحلِ مدينةٌ ، خُيِّل لمحفوظ أنها صغيرةٌ ، لا تختلفُ كثيراً عن المُدنِ الصَّغيرة التي زاروها ، ورسا عندها المركب ، أثناء الرحلة .

وتذكّر حديث صالح عن مدينته تلك ، وكان صالح كثيراً ما يتحدث عنها ، وكان يصفها دائماً بأنها مدينةٌ كبيرةٌ .

قال (محفوظ) في نفسه :

— إذن فهذه المدينة الصغيرة ، التي تبدو هناك على البُعد ، ليست هي بمدينة صالح .

ولكن في تلك اللحظة ، رأى (محفوظ) صديقه (صالح) وهو مقبلٌ نحوه في سرعة وخفه ، لم يعهدهما فيه من قبل ، وحينما اقترب منه ، قال له ، وهو فَرِحٌ سعيدٌ :

— لقد وصلنا يا (عبد الله) .

وأشار بيده نحو المدينة التي كانت تبدو على البعد وهو يقول :

— تلك هي المدينة التي أعيش بها ، والتي وُلدتُ ، ونشأتُ فيها . أنظر يا عبد الله ، إنها هناك ، هناك على البعدِ ، إنها مدينتي فيها أبنائي وبناتي ، وأهلي ، وعشيرتي ، ولطالما اشتقت لها ، وإن شوقي ليزدادُ لها كلما اقتربتُ منها .

قال (محفوظ) :

— لكن ، كيف هذا . . إنها مدينة صغيرة ، وقد ذكرت لي قبل ذلك أنها . . .

وقاطعه صالح قائلا :

— إنك تراها الآن من على البعد صغيرة ، ولكن ما تلبثُ — حين تقترب منها بالمركب — أن يتضح لك مدى كِبرْها واتساعُها .

كان صالح في حالة عظيمة من النشوة والفرح والسرور ، لا تفارق البسمة وجهه ، ولا يستقر له حال ، ولا يبقى في مكان واحد ، فما إن أكمل عبارته تلك ، حتى هرول نحو أحد رجال السفينة ، يسأله ، ويستفسر منه عن بعض الأمور .

ومضت ساعة — تقريباً — و (محفوظ) لا يبرح مكانه عند حافة المركب ، ولا يتحول نظره عن المدينة التي كانت تبدو لناظريه ضخامتها ، واتساعُها كلّما اقتربَ المركبُ منها ، حتى إذا ما حاذاها المركبُ ، بدتْ له ضخامتها ، ولم يكن قد شاهد طوال رحلته تلك ، مدينة بهذه الضخامة وهذا الاتساع فذُهل مما رأى ، وأخذت منه الدهشة كلّ مأخذ .

ولم يفق (محفوظ) من ذهوله إلا على اهتزاز المركب ، وهو يرتطم باليابسة ، ارتطاماً رفيقاً لدى رُسوّه عند مرفإ المدينة .

وتحرك رجال المركب في همة ، يُلقون بالمراسي ، ويشدُّون حبال السارية ، ويضعون بعض الألواح الخشبية لتكون جسراً يعبرون عليه إلى أرض الساحل .

ونزل الجميع إلى الأرض ، وودّع صالح رجال المركب وشكرهم ودعا الله لهم بالبركات وحسن الثواب ، ردعاهم لزيارة داره ، ولكنّهم شكروه على دعوته ، ووعدوه بالزيارة في وقت آخر .

وتقدم (محفوظ) بدوره من رجال المركب الخمسة ،فشكرهم على حملهم إيّاه ، هو وصاحبه ، وعلى إكرامهم لهما أثناء الرحلة ، وما أعطوهما إياه من ملابس ، عِوضاً عن الملابس البالية التي كانت عليهما ، وما هيأوه لهما من حسن الهندام والمظهر .

ثم ودَّعهم بعد ذلك ، ولسانه يلهج بالدعاء الصالح لهم .

ووضع صالح يده على يد (محفوظ) ، ومضيا يشُقّان طريقهما ، إلى بيت صالح .

وأسرعت خُطوات (صالح) قليلا ، وهو يقولُ لمحفوظ مشيراً إلى إحدى الدور ، عند نهاية الطريق :

– هذا هو بيتّي يا عبد الله . .

وسكت لحظة ، ثم استأنف :

– وبيتك – يا عبد الله – بإذن الله .

عند ذلك رفع (محفوظ) بصره ، وأخذ ينظر إلى حيث أشار صديقه صالح ، ولم يعقّب على حديث صالح إلاّ بقوله :

– الحمد لله الذي أعادك إلى بلدك وإلى أهلك سالماً .

ثم مضى الرَّجلان ، حتّى بلغا باب الدار ، وطرقه صالح برفقٍ .

اجتمـاع الشمـل

ما أن انفتح الباب ، وظهر عند عتبته صالح ، حتى أخذ أبناؤه يتصايحون من داخل الدار ، فرحين بعودته ، ثم اندفعوا نحوه والتفوا به ، وهم يلثمون أطراف ثوبه ويديه ، وقد بُحّتْ أصواتهم من ترديد عبارات الفرح والسعادة ، والسرور بعودته ، كان بعضهم يبكي ، والبعض منهم يضحك ، بينما وقف البعض الآخرُ حائراً ، لا يدري ما يفعلُ ، أما زوجتُه وابنتُه الكبرى ، فقد وقفتا كالتمثالين ، وهما في حالة من الذهول ، قد ألجمتْهما المفاجأة .

ومضت لحظات ، ثم أخذت البنت تفرك عينيها ، وتنظر في وجه أبيها ، وهي لا تكاد تصدق ما ترى ، بينما وقفت الأم تحدّق في زوجها العائد ، فاغرةً فاها ، وقد تجمدت فيه الكلمات كأنما تنظر إلى شبَح ، أو إلى ميت عاد بعد أن مات .

فقد مضى أكثر من عامين على غياب صالح ، سألت عنه زوجته ، وسأل عنه أهله كلٌّ من يعرفه ، وكلٌّ من يمكن أن يدلهم على مكان وجوده ، بعد أن طال غيابه في تلك الرحلة ، التي خرج فيها بتجارته ، على ظهر مركب ، يجوب البحار ، متنقلا من مدينة إلى مدينة ، يبيع ويشتري .

وكانت رحلته تلك في الماضي — لا تستغرق إلا شهوراً قلائل ، فما إن تمضي ثلاثة أشهرٍ ، أو أربعة ، حتى يعود إلى بلده ، وأهله .

فلما انقضى العام ، ولم يعُد ، وسألوا عنه فلم يعلموا عنه شيئاً ، يئسوا من عودته ، وقال قائلهم لا بدّ أن البحر قد ابتلعه ، وأودى بحياته .

وحزنت زوجته ، وحزن أبناؤه ، وأهله ، وأصدقاؤه ، وحزن كلُ من كان يعرفه ، وكل من تعامل معه في تجارة ؛ فقد كان صالح رجلا محبوباً ، طيب القلب ، دمث الأخلاق ، تقياً ، صالحاً .

وطال بكاء أبنائه ، وطال حُزن أهله على فقده ، ثم مضت الأيام بعد ذلك عليهم رتيبة ثقيلة ، تحمل كلُ ساعة من ساعاتها ذكراه التي ما فتئت الأم تُزكيها في نفوس أبنائها وعقولهم ، تقرنُها — دوماً — بما كان عليه أبوهم من سموّ خلق ، ونبل ، وصلاح ، حتى باتوا لا يذكرونه إلاّ واقترنت ذكراه في نفوسهم بأعظم آيات الإجلال ، والاحترام .

وها هو ذا في تلك اللحظة ، يقف أمامهم بشخصه ، فما كادوا يصدقون .

أما (محفوظ) ، فقد وقف حائراً ، مدهوشاً من كلّ ما يرى ، لا يكادُ يفهمُ حقيقة تلك العواطف ، وماهيتها ، فهو لم يكن في يوم من الأيام أباً ، أو إبناً لأحد ، ولا كان زوجاً ، أو أخاً لأخت ، أو أخ لذلك فلم يستوعبّ عقله عُمق ما يدور أمامه من انفعالات تفيضّ بها تلك النفوس ، ولا أحست نفسه ، إحساساً حقيقياً بحرارة ذلك اللقاء ، وإلاّ لذابت نفسه ، وسالت عبرات ، ولدمعت عيناه ، بل بكى تأثراً مما يرى .

أما أهل الدار ، وقد إنشغلوا بالعائد العزيز ، وأولوه كل

فكرهم وإحساسهم ، واهتمامهم ، فقد نسوا — في غمار كلّ هذا — ذلك الشاب (محفوظاً) ، الذي ظلّ واقفاً طوال ذلك الوقت ، وربما انشغل بهيكل الغرفة التي يدخلها لأول مرة ، وتلك الأشكال المتباينة لتلك المجموعة من الناس ، وحركات أفرادها أكثر من أي شيء آخر ، فهذا طفلٌ ولدٌ ، وذلك طفلٌ أعتقد أنه أنثى ، وتلك أنثى ، وهذه أنثى أخرى ، أعتقد أنها أكبر سناً بكثير من الأخرى ، لعلّها أمها .

وهكذا مضى الوقت ، حتى تنبّه صالح أخيراً لِحرجِ موقف (محفوظ) ، فتحرّك نحوه ، ووقف إلى جِواره ، ثم وضع يده على كتفه ، بكلّ ودٍ وحبٍ ، وكان صخب الجميع قد توقف ، ووقف كلٌ أفراد الأسرة صفاً واحداً غير منتظم ، في قُبالة والدهم وضيفه ، عند ذلك قال صالح مخاطباً (محفوظ) ، وهو يشير إلى المجموعة التي أمامه :

— هذه هي أسرتي ، التي طالما حدّثتك عنها — يا عبد الله — ، هذه هي زوجتي آمنة ، وهذه ابنتي سُمية ، وهذه الصغيرة سلوى ، وبجوارها فاطمة وليلى ، وهذا الصغير هو أحمد ، وبجواره محمد .

ثم استطرد صالح موجهاً الحديث لأسرته ، وهو يربت على كَتف (محفوظ) برفقٍ :

— وهذا هو صديقي عبد الله ، الذي التقيت به أثناء غيبتي تلك ، وهو صديقٌ عزيزٌ ، بمثابة الابن والأخ لي .

وصمت صالح فترة من الزمن ، ثم واصل حديثه :

– إن صديقي ، وابني عبد الله ضيفي ، وسيقيم معنا في الدار ، ليُعينني في عملي إن شاء الله .

عند ذلك تقدم أفراد الأسرة ، الواحد بعد الآخر نحو (محفوظ) ، فحيّوه ، ورحبوا به .

(الأمـــانة)

مضت الأيام على (محفوظ) ، وهو يقيم مع الشيخ صالح ، وقد أفرد له الشيخ صالح من بيته جزءاً في مكان قصيٍّ من البيت ، يقضي فيه الليل ، يمضي معظمه في العبادة قائماً راكعاً ساجداً يتعبّد ويتهجّد .

أما بالنّهار ، فكان نِعْم العون للشيخ صالح في عمله وتجارته .

وسرعان ما أحبّه أهل المدينة ، من أصدقاء صالح ، وعملائه فاحترموه ، وقدّروا فيه صلاحه ، ودماثة خُلُقه ، وحسن معاملته للآخرين . وأجرى الله على يديه خيراً كثيراً ، وربحاً وفيراً ، للشيخ صالح ، فازدهرت تجارته ، وزاد ماله ، وتحسّن حاله .

أما زوجة صالح ، وأبناؤه وبناته ، فقد وجدوا في (محفوظ) خير أخٍ صالح ، تقيّ النفس ، طاهر السريرة لا يصدر عنه إلاّ كلّ ما يرضيهم من فعلٍ أو قولٍ .

وتوالت الأيام والشهور والأعوام ، و (محفوظ) يزداد كلّ يوم قرباً من قلب صالح ويزداد رفعة وإجلالا في نفوس كل من عرفوه .

وأصبح يقوم بمعظم العمل من بيع وشراء ، يحمل العبء

عن (صالح) الذي أخذت صحته في التدهور ، فضعفت قوته ، ولم يعد يقوى على العمل كما كان في السابق .

حتى كان ذات يوم ، لزم الشيخ صالح فراش المرض لعدة أيام ، فتأثر (محفوظ) لحاله أيما تأثر ، وأشفق عليه إشفاقاً عظيماً ، ورعاه رعاية صادقة ، فكان يسهر الليل إلى جوار فراشه ، لا ينام ، ويشرف عليه بالنهار ؛ فيقدم له الدواء ، ويقدم له كل عون يحتاجه .

وفي ذات ليلة ، اشتد المرض بالشيخ صالح ، حتى استعصى عليه النوم ، وبذل (محفوظ) كل جهد ليخفف عنه من وطأة آلام المرض ، ويسري عن نفسه المكدودة من أثر السهر ، حتى تهدأ ، فينام ، فأخذ يقص عليه القصص عن طفولته الأولى ، وحياته بين الغزلان ، في الوادي الأخضر ، ويحكي له عن الوادي وما فيه مما لم يشاهده الشيخ ، وعن الأسرار التي أبدعها الله تلك الطبيعة الرائعة ، وما ضمنها من تناسق وكمال ، بحيث يستطيع الإنسان أن يحيا في أحضانها ، فيجد فيها كل مقومات العيش ، فلا يحتاج عوناً من أب أو أم أو معين آخر من بني البشر ، فالله الذي خلق كل هذا الوجود جعل كل ما فيه مرتبطاً بعضه ببعض ، في أبلغ صورة لوحدة هذا الكون ، تأكيداً لأن الخالق واحد والمدبر واحد .

« **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا** » .

الكل يجد فيه رزقه ، ومستقره ، ومستودعه .

وكان (محفوظ) يتلو بين كل آونة وأخرى آية من القرآن الكريم ، دالة على عظمة الخالق المبدع ، جل جلاله :

«هَـذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذا خَلَقَ الّذِينَ مِنْ دُونِهِ»

ثم تتحرك شفتاه بالتسبيح ، ويردد قول الله تعالى :

«الّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . والّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . والّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى» .

مضى شطرٌ من الليل ، والشيخ صالح يسمع لحديث (محفوظ) فارتاحت نفسه وسكنت له ، واطمأن خاطره ، وذهب عنه ما كان يعاني من ألم ، فأخذ يشكر (محفوظ) ويثني عليه .

قال له محفوظ :

ـ إني أحمد الله لك ، على ما أنعم عليك به من عافية ، فأذهب عنك ما كنت تعاني من ألم ، فنمْ حتى ترتاح مما كنت تعاني ، وتسكن نفسك ، ويطمئن خاطرك .

قال صالح :

ـ إن خاطري مطمئن برضاء الله ، ونفسي راضية ساكنةٌ بأن يَسّرَ لي لقاءك ، والتّعرف إليك ، فأنت اليوم نعم العون لي بعد الله ، ترعى شئوني ، وتحدُب على أُسرتي ، فترعاها ، وتقوم على أمورها في غيابي ، وعندما يُقعدني المرضُ . .

قال (محفوظ) :

ـ إنّ هذا أقل ما يتوجبُ عليّ ، في مقابل ما أوليتني إيّاه من فضل .

قال صالح :

ـ ولكن هناك أمرًا يؤرِّقُني ، ويشغل بالي . .

قال محفوظ : ليتني أستطيع أن أحمل عنك همّ هذا الأمر .

صالح : إنك تستطيعُ ذلك . .

قال محفوظ ، وقد تعجب لحديث الشيخ صالح :

– كيف هذا . . يا سيدي . . . ؟

وصمت (محفوظ) هنُيهة ، ثم استطرد :

– إنك تعلمُ يا سيدي أنني لا أتوانى في بذلِ أيِّ جَهد من أجلك . . ولو استطعتُ أنْ أحمل الهمَّ عنكَ لفعلتُ منّ غيرِ ابطَاء أو توانٍ .

قال صالح :

– الأمرُ الذي يشغلُني ، هو ما سيؤول إليه حالُ أسرتي من بعدي . . . فهلا أثقُ بك . . . في رعايتها من بعدي . . وأن أزوجك من ابنتي الكبرى . . ؟

قال (محفوظ) :

– لست أدري ماذا أقول ، وبأيّ لسان أحمدُ الله تعالى الذي أكرمني بمعرفتك . . فكانت هدايته لي – سبحانه – على يديك ، وكانت معرفتي بذاتي عن طريقك ، وها أنت ذا – اليوم – تعرض علي أمرًا عظيماً . . وتُلقي على عُنقي معروفاً ، تُطوقني به . . على الرغم من علمك بمنشأ حياتي ومبتداها . .

قال صالح ، وهو يحاول أن يعتدل جالساً في فراشه :

– ليس في منشئك – يا عبد الله – ما يُضيرك ، وليس في مبدأ حياتك ما يعيب مسارها ، ومنتهاها . . .

ولقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

(إذا أتاكم من ترضون دينَه وخُلقه فزوِّجوه) . .

وأنت يا بُني من أرضى دينه وخلقه ، وأنت من يطمئن له قلبي ، فأزوجُه ، وأستخلفُه في أهلي ، إذا ما توفاني الله ، أو ألمّت بي شائبةٌ من شوائب الدنيا .

وسقطت دمعةٌ من عين (محفوظ) وسالت على خدّه ، بينما كانت شفتاه تُردّدان الحمد لله ، والشكر .

قال صالح ، وهو يضع يده على يد (محفوظ) :

ــ أنت يا بني هبةٌ وهبني اياها الله تبارك وتعالى ، وقربُك من أسرتي ، واقترانُك بابنتي نعمةٌ من الله وفضلٌ . . .

قال (محفوظ) ، وقد احتبس صوتُه ، أو كاد :

ــ بل هي نعمةٌ وفضلٌ آخرُ من أفضال الله عليَّ ، الذي لا تُحصى نِعمُهُ ، ولا تنتهي عند منتهىً أفضالُه . . ولا تَنْفَدُ خزائِنُه .

كان يوماً مشهوداً في حياة (محفوظ) ، يوم أن دعا الشيخ صالح بعض أصدقائه من أفاضل أهل المدينةِ إلى داره ، فأولمَ لهم وليمةً ، وأشهدهم على عقد زواجِ (محفوظ) من ابنتِه .

وكان الكلُّ في سرورٍ وسعادة ، فقدْ أحبَّ جميعُ أهلِ المدينة (محفوظاً) لخلُقه السامي الرّفيع ، ولشهامته وأدبه ، واحترموه لصلاحه وتقواه ، وحبه للخير ، ففرحوا لفرحه بزواجه ، وسعِدوا لسعادته .

ومضت الأعوام بعد ذلك – على (محفوظ) ، وقد أصبح زوجاً لابنة الشيخ صالح ، التي كانت له نعمَ الزوجة الصالحة ، وصار بعد ذلك أباً لطفلين ؛ أحدهما ولدٌ والأخرى بنتٌ ، أطلق على الولد اسم (صالح) ليكون صالحاً ، وليكون ذلك يُمناً وخيراً إذ يحملُ اسماً تَسمّى به جدُّه ، وفي ذلك وفاءٌ له أيضاً . وأطلق على البنت اسم (زينْب) .

أما الشيخ صالح ، فقد تقدم في العمر ، وأوهن جسمه المرض ، حتى كان يوماً ، اشتدّ فيه عليه المرضُ فأرسلَ في طلب (محفوظ) .

فلمّا حضرَ (محفوظ) ، وجلس إلى جواره ، أوصاه الشيخ بأسرته خيراً ، ثم ما لبث أن أسلم الروح لبارئها ، ومات .

حزِن (محفوظ) لموت الشيخ (صالح) ، حزُناً شديداً ، وكان يجلس دائماً في معزلٍ من النّاس ، يتذكّر ، ويستعيدُ في ذهنه ما فعل ذلك الرجلُ النبيل من أجله ، وكيف حفظ ذلك السرَّ عن نشأته ، حتى دُفِن معه .

وبعد شهور قلائل ، عادت الحياة في بيت الشيخ (صالح) إلى سابق حالها ، وقد أصبح (محفوظ) نعم العون للجميع ، يحنو على الصَّغير من أبناء الشيخ صالح ، ويواسي أُمّهُم ، ويستجيب لكل ما تطلب منه ، فهو لها بمنزلة الإبن ، كما كان وفياً لزوجته ، عطوفاً على أبنائه .

أما التجارة التي خلّفه عليها الشيخ صالح ، فقد ازدهرت ، واتسعتْ ، وصار (محفوظ) من أشهر تجار المدينة ، وأحسنهم سيرة ، وأوفرهم ثقة .

كبُر (صالح) الصغيرُ ، ابن (محفوظ) ، وأصبحَ شاباً يافعاً قوياً ، يعمل مع والده في تجارته ، وأعماله الأخرى ، يتبعه في غدواته ، وأوباته ، ويُعينه في كلّ أمرٍ .

وفي ذات يوم ، وبينما كان (محفوظ) ، يمضي ، مخترقاً سوق المدينة ، يتبعه ابنه صالح ، يسير في أثره ، إذ توقّف فجأة ، عن المسير ، وكأنما تيبّست قدماه ، وشُلّتْ ساقاه ، وأخذ يحدق في رجلٍ كان يقفُ على مسافةٍ قريبةٍ منه ، يحملُ بين يديه ، وعلى ذراعيه غزالا ، يعرِضُه للبيع .

وطالت وقفة (محفوظ) ، وطال تحديقه في الغزال والرجل الذي يحمله ، فتقدّم نحوه ابنُه (صالح) ، وقال له بأدبٍ واحترامٍ :

— هل أعجبك هذا الغزال يا أبي . . ؟

فلمّا لم يُجب (محفوظ) ، واصل (صالح) الشاب حديثه :

— إنّه — فعلا — غزالٌ جميل المنظر ، لعلّ صاحبه يبيعه بثمن معقول . . . هل نبتاعه منه يا أبي . . ؟

ولم يستطع (محفوظ) من فرط انفعاله ، أن يُجيب على سؤال ابنه ، وخشي أنّه لو فتح فمَه ، أن تنفجر عواطفُه ، ويخذُلَه تماسُكُه ، فينهارُ ، ويبكي ، فقدْ مرتْ بذهنه — في تلك اللحظة — كلُّ صورِ الماضي منذ أنْ التقى بتلك الغزالة الأم ووليدها ، ثم حياته بعد ذلك مع قطيع الغزلان في الوادي الأخضر .

وأعاد ابنه السؤال مرة أخرى :

— هل نبتاعُه — يا أبي ؟

عند ذلك حرك (محفوظ) رأسه إيجاباً – عدة مرات .

وكان هذا كافياً لابنه (صالح) ، إذ مضى من فوره إلى الرجل ، صاحب الغزال ، فابتاعه منه ، ولعله دفع له ما طلب من ثمن ، من غير جدل ، أو أخذ وعطاء ، إرضاء لوالده ، وتحقيقاً لرغبته ، من غير أن يعلم سر تلك الرغبة .

وعاد (صالح) الشاب ، يحمل الغزال ، وناوله لوالده الذي ما كاد يتسلمه ، حتى احتضنه ، وضمه إلى صدره ، وأخذ يُقبله ، وقد جاشت نفسه بكل عواطف الحب ، والحنين ، وسالت الدموع من عينيه .

وقف صالح يرقب والده ، وهو يعجب من كل ما يرى ، ولا يكاد يفهم لكل ذلك معنى ، أو يجد له تعليلا ، وأخذ عقله يعمل بكل خاطرة تخطر له ، وما عسى أن يكون السبب في كل ما يحدث من والده ، ولم يتنبه إلا على خطوات والده السريعة ، وهو يتحرك ماضياً في اتجاه غير الاتجاه الذي كانا يمضيان فيه أول مرة .

لم يملك صالح إلا أن يُسرع الخُطى خلف والده الذي كان يسير مسرعاً ، يكاد يهرول . . وهو يحمل الغزال بين ذراعيه .

واخترق (محفوظ) السوق حتى تجاوزه ، يتبعه ابنه ثم مضى فتجاوز أيضاً كل دور المدينة ، وعمرانها ، حتى بلغ نهايتها ، وغذّ في السير حتى بلغ موضعاً فضاء خارج المدينة .

حدث كل هذا ، ولم يجرؤ (صالح) على سؤال والده عن وجهته ، أو مقصده ، حياء ، وتأدباً .

وتوقف (محفوظ) فجأة ، وانحنى على الأرض ، وأنزل الغزال ، ثم قبّله ، وأطلق سراحه .

مضت فترة بعد ذلك ، و (محفوظ) يقف ، وقد سالت دموعه على خديه ، وهو يراقب الغزال ، حتى ابتعد ، واختفى بين الأحراش .

وعند ذلك ، سأله ابنه صالح ، وهو في تعجب ، ودهشة ، مما رأى :

ـ لماذا أطلقت سراح الغزال ، يا أبي ؟

ولكن محفوظاً لم يُجب ، أول الأمر على سؤال ابنه ، بل أمسك بيده ، ومضى به نحو صخرة قريبة ، عند شجرة ظليلة ، فأجلسه ، وجلس إلى جواره ، ثم قال له :

ـ هناك يا بني سرٌّ عظيم ، أحمله في نفسي ، لا يعلمه إلا الله ، ثم جدُّك الشيخ صالح عليه رحمة الله .

واعتقد صالح ، أن أباه لم يسمع السؤال الذي وجهه إليه ، في أمر الغزال ، فكرر السؤال مرة أخرى :

ـ لماذا أطلقت سراح الغزال يا والدي ؟

قال (محفوظ) :

ـ إن أمر هذا الغزال يا بني ، مرتبط بهذا السر الذي سأرويه لك ، على أن تكتمه ، فلا تُفشيه لأحد كائناً من كان إلا بعد وفاتي .

وحكى (محفوظ) لابنه كل حكايته ، وقصة نشأته بين الغزلان في الوادي الأخضر ، وكيف التقى به الشيخ صالح .

وقال (محفوظ) في آخر حكايته لإبنه :

— . . . ما حكيت لك — يا بني — كل هذا ، إلا لتعلم مبلغ نبل جدك الشيخ صالح ، وفضله — بعد الله — عليّ .

عند ذلك ، نهض صالح ، وقبل رأس والده ، وقبل يديه ، وهو يقول له :

— إن قصتك — يا والدي — لم تترك في نفسي سوى التقدير لك ، والإكبار والإجلال لشخصك ، ولم يزدني هذا اليوم إلا احتراماً لك ، على احترامي وحباً وتقديراً ، لنبل خلقك ، ووفائك لجدي الشيخ صالح ، ووفائك للغزلان ، أهل الوادي الأخضر ، بتكريمك لهذا الغزال ، وفك أساره ، وإطلاق سراحه .

أما هذا السر ، وتلك القصة ، فلن يعلم بها أحد — إن شاء الله — وإني لأطلب من الله لك طول البقاء وسأرويها لأبنائي ، بعد أن أسطرها كتاباً للأجيال ، تحكي قصة وفاء « ابن الوادي الأخضر » .

وجزى الله جدي الشيخ صالح كل خير ، على ما هداك بفضل الله للإيمان ، وأحسن ثوابه ، **إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا** .

(تمــت)

الفهـــــرس

صدر من هذه السلسلة

١ ـ تاملات فى سورة الفاتحة/للدكتور حسن باجودة٠

٢ ـ الجهاد فى الاسلام مراتبه ومطالبه / للاستاذ احمد جمال ٠

٣ ـ الرسول (ص) فى كتابات المستشرقين ٠٠/ للاستاذ نذير حمدان ٠

٤ ـ الاسلام الفاتح / للدكتور حسين مؤنس ٠

٥ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكرى للعالم الاسلامى / للدكتور حسان محمد حسان ٠

٦ ـ السيرة النبوية فى القرآن الكريم / للدكتور عبد الصبور مرزوق ٠

٧ ـ التخطيط للدعوة الاسلامية / للدكتور على محمد جريشة ٠

٨ ـ صناعة الكتابة وتطورها فى العصور الاسلامية / للدكتور احمد السيد دراج ٠

٩ ـ التوعية الشاملة فى الحج/للأستاذ عبدالله بوقس ٠

١٠ ـ الفقه الاسلامى افاقه وتطوره / للدكتور عباس حسنى محمد

١١ ـ لمحات نفسية فى القرآن الكريم / للدكتور عبد الحميد محمد الهاشمى

١٢ ـ السنة فى مواجهة الأباطيل / للأستاذ محمد طاهر حكيم ٠

دار الأصفهاني للطباعة بجدة
رقم الترخيص ١٨ ص - ٥/٤/١٣٩٣هـ